أحلام و نهاية الأحلام

د. مهدي عامري

أحلام ونهاية الأحلام د. مهدي عامري

ماهي للنشر والتوزيع

(أحلام و نهاية الأحلام).

من منا ما زال يذكر الحضن الأول و القبلة الدافئة على الجبين و تلك العينين المفعمتين بالود و الأمل و دعوات النجاح و البركة و الأمان ؟ من ينسى اللبن الفياض و الخبز الدافئ و الحساء الساخن و سهر الليالي و نكران الذات و الحب الخالد و قمة التفاني ؟

الذاكرة عاجزة عن استحضار كل الصور، الكلمات لا تكفي لوصف هذا المخلوق الاستثنائي... بحار الدنيا مداد و أشجارها أقلام و الكتابة عنك مراودة للمستحيل، و عشق، و انصهار مع الجمال و توحد دائم بمعاني الوفاء.

الأم...

لا... أعلم أني لا أبالغ، أفكاري صافية، القمر في السماء منير بهي رائع الاستدارة، و تعتريني رغبة مجنونة في الكتابة... فالكتابة تجرد و اعتراف و خلاص و أكبر و أعظم انتصار على الذات.

أحلام و نـهاية الأحلام

د. مهدي عامري[1]

١. د. مهدي عامري من مواليد مدينة فاس يوم ١٠ أكتوبر ١٩٨١ و يعمل حاليا كأستاذ باحث بالمعهد العالي للإعلام و الاتصال بالرباط (المغرب). يمتلك د. عامري خبرة مهنية في التدريس و التكوين الجامعي و البحث العلمي الأكاديمي و التنمية الذاتية و النشاط الجمعوي الثقافي و السينمائي تفوق ١٠ سنوات. عمل سابقا كأستاذ متعاقد و منسق تربوي بالمدرسة العليا للتواصل و الإعلانات بالدار البيضاء، و اشتغل أيضا في السنوات الأخيرة، كأستاذ جامعي بدوام كامل في مجال الإعلام و الاتصال بفرنسا. د. مهدي عامري كاتب و ناشر منتظم لمجموعة من مقالات الرأي و التنمية الذاتية إلى جانب القصص القصيرة بعدد من المنابر الصحفية الالكترونية العربية الرائدة (هسبريس، هافنغتون بوست عربي...) و هو حاصل على شهادتي الدكتوراه و التأهيل الجامعي في علوم الإعلام و التواصل في جامعة بوردو (فرنسا) و في كلية علوم التربية بجامعة محمد الخامس بالرباط.

قائمة المحتويات

عنوان النص	رقم الصفحة
اختفى كل شيء	٥
رسالة إلى صديق	٦
انتظار	٩
العمل و الأمل	١٢
في سبيل الوطن	١٧
حضرة يوسف المحترم	٢٠
اعترافات عبد العزيز	٢٤
مواطنون بلا وطن	٢٨
يزعمون أنها ثورة	٣١
دين و دعوة و دولارات	٣٤
مشرق الأنوار	٣٨
عندما رأيت الثعلب	٤٢
لن أعيش في جلباب أمي	٤٨
رحيل	٥٣
دار الحق	٥٦
قرة العين	٦١
الرسام لا يموت	٦٦
أبواب الرضا	٧٠
أحلام و نهاية الأحلام	٧٤
شيء من القسوة و كثير من الحب	٧٨
بركات الأم	٨٠

أن تعمل	٨٤
أسطورة الحب	٨٧
لحم بالسفرجل	٩٤
لست إرهابيا و لست "شارلي"	٩٧
نحبك يا محمد	٩٩
كيف نحب الوطن ؟	١٠١
أذكى شعب في العالم	١٠٣
انتظارات العام الجديد	١٠٥
المهاجر و البحر	١٠٧
الحضانة ياما الحضانة	١٠٩
التسول بين التكاسل و التواكل	١١٢

هذا الكتاب..

يضم هذا الكتاب ٣٢ نصا موزعا بين أجناس القصة القصيرة و مقال الرأي و الخاطرة الصحفية.

إن كتابة مواد "أحلام و نهاية الأحلام" لم تكن وليدة الصدفة، و لكنها رحلة بين عوالم خفية من الحب و الألم و الأمل و الحلم بمستقبل أفضل. إن النصوص التي بين يديك عزيزي القارئ و التي كتبت في فترات متقطعة بين عامي ٢٠١٣ و ٢٠١٥ تعبير صادق عما اختلج في أعماقي في السنوات الأخيرة من عواطف و مشاعر و أحلام كلها مرتبطة بالتوق إلى الحرية و نشدان التغيير الإيجابي و البناء في كل مناحي الحياة. و لأن الكتابة في ذروة الألم بحث لا ينتهي عن المعنى و ملاذ أول وأخير في صحراء الحياة فإن هذا الكتاب جزء لا يتجزء من روحي و دعوة إلى المكاشفة و ممارسة الصراحة و الفعل الاجتماعي البناء عوض التبعية و السير خلف القطيع.

لا شيء يعادل متعة الكتابة و لذة البوح بعيدا عن الأحكام الجاهزة و قريبا جدا من جذور القلب. و لأني أتوق دائما إلى تشكيل الماضي و الحنين إليه و استرجاع لحظات تعبق بأريج الانطلاق و متعة أن يكون تفكيرك في يومك فإنه يشرفني أن أضع بين يديك نصوص هذا الكتاب، و كن على يقين صديقي القارئ أن كل نص هنا يتفاعل و يتحاور مع غيره على شاكلة نبضات القلب.

آمل أن يرفع كتاب "شيء من القسوة و كثير من الحب" من جودة حياتك و أن يفتح أمامك آفاقا جديدة و رحبة للتفكير في كينونتك و في معنى وجودك بمعترك الحياة. و أتمنى أن يمكنك كتابي هذا من إعادة ترتيب أوراق حياتك و تنظيم أفكارك و مخططاتك نحو الأفضل.

أحلام و نهاية الأحلام

إن هـدفني مـن هـذا العمـل أن أصـنع فـي أعماقـك مزيـدا مـن التفـاؤل و أن أمـدك بجرعة إضافية من السعادة و حب الحياة.

و أتمنى أخيرا أن يتحقق هذا الهدف و ربنا و خالقنا ولي التوفيق.

اختفى كل شيء

رأيت في ما يرى النائم أني أجول في حدائق مزهرة، تخترقها أنهار و تؤثث اشجارها طيور فردوسية. الجو بديع، و الفصل ربيع. لكني حزين، و حزني أثقل من الصخرة فوق كتفي سيزيف.

هل هو حزن البعد عن الأحباب؟ هل هو حزن الانتماء إلى وطن يتجرع مثقفوه يوما بعد يوم مرارة العزلة و عدم القدرة على المشاركة الفعلية في تنمية الوطن ؟

رباه ! الحديقة شاسعة مترامية الاطراف غير أن حزني بدل أن ينقلب فرحا وسط هذا الفضاء الكبير استحال قطعة من المعاناة.

ها هو صديقي خالد ألمحه جالسا على كرسي من الخشب في زاوية بعيدة. انشرحت ، تهلل وجهي فرحا لرؤيته. و دار بيننا الحوار التالي

- من أين أتيت ؟ و كيف قفزت إلى هنا ؟ الا تدري أنك، و الحديقة، و الأشجار، و الطيور..و..و.. كل ذلك حلم في حلم؟؟

- لا يهم. المفيد أني رايتك..إسمع ليس بين الحقيقة و الحلم فرق إلا ما اوجدناه في عقولنا. هل تدري ماذا فعلت في الأشهر الأخيرة ؟

- ماذا فعلت ؟

- لقد هاجرت إلى الضفة الاخرى و قررت عدم العودة إلى الوطن...

أحلام و نهاية الأحلام

- عدم العودة ؟؟ و لو بعد عام، عامين، خمسة أعوام

- لن أعود بتاتا ما حييت...

- يا الهي و لم كل هذه الثقة ؟ كيف لك أن تتحلى بكل هذا التصميم ؟

- اسمعني جيدا... في بلد اغلب سكانه همهم الوحيد اكل و شرب و ذهاب الى التواليت، لا يمكن ان تتوقع نهضة فكرية او مشروعا تقدميا يغير نحو الافضل ملامح المستقبل. لا يمكن...

- ا لهذا الحد؟ ا لست متشائما نوعا ما ؟

- بلى، وانظر أيضا الى الكم الهائل من الحقد و الكره المخزون في الكثير من الصدور. الا تصيبك بالتقزز مشاهد القتل و الدم و الظلم اليومي و قمع البشر و التنكيل بهم في سورية و مصر و تونس، و.. و..و..

- بلى، اني أستشيط غيظا، و أكاد أموت غما عندما أشاهد في القنوات التلفزية أو على اليوتوب كل هذه الفظاعات التي جردت الانسان من انسانيته...

- اننا نحتاج اكثر من اي وقت مضى فى زمن تفاقم فيه الكره و الحقد الى الدين الروحاني الذى يعلمنا الحب و الرحمة و التسامح اللامحدود.

ما زلنا نحن الاثنين في الحديقة..غير أن حوارنا قطعته فرقعة بالونة كبيرة.

العجيب أني وخالد و الحديقة و الأشجار و الطيور كنا نقبع داخل البالونة... و صرنا في لمح البصر هباء منثورا... لقد توحدنا مع الفراغ.. صار الفراغ نحن، و صرنا فراغا فوق فراغ.

والآن.. اختفى كل شيء...

رسالة إلى صديق

مـا أروع أن تكـون فـي المغـرب أو فـي أي بلـد عربـي إسـلامي آخـر، و أن تستحضـر صـورا مـن الـذاكرة جـرت أحـداثها فـي الضـفة الأخـرى. إن تـوالى مشـرق الشـمس ومغيبهـا علـى هـذا البيـت الـذي أسـكن فيـه فـي هـذا الصـيف الحـار الـراقص علـى ايقاعـات السـهر و الأعـراس و الفـرح و اللقـاءات و السـمر مـع الأصـدقاء... إن هـذا التـوالي لعلامـة علـى أن الحيـاة مسـتمرة و أننـا نسـتحق أن نعيشها، بحلوها ومرها...

فمرحى! و هنيئا لكم جميعا يا محبي الحياة !

كانت أول معرفتي به في عام ٢٠٠٧

شـاب فـي الثامنـة عشـرة مـن عمـره. نحيـل القامـة، ضـئيل الجثـة ، خفيـف الشـعر، غائر العينين أسودهما، في نظرته يتم و حزن و ضياع و طفولة و ذكاء.

المكـان فرنسـا. المدينـة بـوردو. الشـهر سـبتمبر. أيـن بالتحديـد؟ فـي الحـي الجامعي.

و مـرت اشـهر، بـل اسـابيع قليلـة، وأصـبح هـذا الشـاب ذي الرابعـة و العشـرين ربيعـا، و أنـا اكتـب هـذه الأسـطر المـلأى بـالحنين و المغموسـة فـي محبـرة الصداقة الخالصة،أصبح الصديق رقم ١ بلا منازع...

عنـدما اتحـدث عـن الصـديق رقـم ١ فـاني أعـي جيـدا مـا اتلفـظ بـه. وجهـان لعملـة واحدة، إخلاص، و ود بدون مقابل. ليس في المعادلة مال أو مصلحة أو جاه.

- أراك دائما يا رشيد في القمة...

- اوه حذيفـة، هـذا كثيـر.. مـا زال أمـامي الكثيـر ممـا يجـب فعلـه حتـى أصـل إلـى أهدافي...

-أهدافك؟ و لكنك أحرزت على شهادة الدكتوراة، و درست بفرنسا، و عدت إلى الوطن و اشتغلت و تزوجت.. هذا في حد ذاته مهم... إسمع... يجب أن ننطلق في رحلة مشوقة... إيطاليا أو البرتغال. ماذا ترى ؟

حذيفة. إسمي حذيفة، و أنا من مدغشقر. و لكني هندي الجنسية..اه... هل سبق لك أن زرت الهند ؟ و لا مرة، تصور.. و إنخرط في الضحك... إني أراك بأم عيني، في مشهد تذكري ناصع، أراك راقدا في المستشفى و أنت تئن ألما بسبب رجلك المكسورة الملفوفة في الجبس. و أذكر دون أن أنسى ما احضرناه لك في أول زيارة بالمشفى. البان ويوغرت و عصير، على عادة المغاربة في عيادة المرضى...

و ربحت عددا لا باس به من اليوروهات، لم تنفق منه و لا سنتيما واحدا في شراء سجائرك الشقراء المفضلة. و لكن باب النفقات إنفتح على عالم مذهل: تملك تحفة فريدة من كتب باولو كويليو. الخيميائي، فرونيكا تقرر أن تموت... و مكتوب...

و اشتغلت طوال شهر كامل على متن دراجة نارية كموزع.. كان كل شيء على ما يرام.. و كنت تغرق في سعادة الأطفال بعملك (نصف دوام) الذي يتيح لك ضمان مصاريف الدراسة و السكن و الاكل.

ضمان ؟؟

... الضامن هو مولانا يا صاحبي

و سقطت سقطتك المنحوسة من على الدراجة في الدوار.. مكتوب... و انكسر الفخذ و العظم في الحال. و كدت تموت ألما، و نقلت على الفور الى المستشفى. و تمت العملية...

و ها هو ثغرك يفتر عن ضحكة مجلجلة و أنت تقول معلقا : "انها ليست بالضرورة ذكرى حزينة". أسالك : "ولمه؟". تجيبني: "رب ضارة نافعة. إن

أحلام و نهاية الأحلام

العـام الـذى كسـرت فيـه رجلـي، و لزمـت فيـه المشـفى اسـابيع طويلـة، وانقطعـت فيه عن الدراسة شهورا و شهورا،لهو من أفضل اعوام حياتي...

كيف ذلك ؟

خلالـه وعيت كامـل الـوعي أنـي لـم أخلـق لدراسـة الطـب، و أنـه وجـب علـي فـي أسـرع وقـت تغييـر الوجهـة. الفيزيـاء يـا صـاحبي حلـت محـل الطـب، و رميـت فـي سـلة المهمـلات حلـم والـدي بـان أصـير فـي يـوم مـن الأيـام طبيبـا، و هـا أنـا أشـق طريقي بثبات في مجرة الفيزياء.

هـل تـذكر عنـدما سـافرنا الـى سـان سبسـتيان و قضـينا ليلـه كاملـة بـدون مـأوى فـي الشــارع لاننــا نســينا فــي بــوردو ورقــة حجــز الفنــدق التــي هــي لا غيــر ورقــة الاثبــات ؟ هــا هــا هــا.. و كيــف أنســى ذلــك يــا صــاح..؟؟ وصــلنا إلــى المدينــة الاسـبانية المتاخمــة لفرنسـا، علـى مبعـدة ٢٧ كلـم مـن الحـدود، وصـلنا فـي ليـل متــأخر. و ذرعنــا المدينــة جيئــة و ذهابــا. مــا أبهــج هــذي المدينــة! هــل لان مــن قابلناهم كان اغلبهم في حالة سكر ؟

سـائق التاكسـي الـذي اوصـلنا إلـى سـان سبسـتيان كـان أيضـا فـي حالـة مـن النشـوة عجيبــة. إذا اردتمــا الزيــارة فعليكمــا البــدء أولا بالمدينــة العتيقــة. أوامــرك مطاعــة يا سعادة المرشد السياحي...

ذكريـــات..رغم أنـــك بعيـــد عـــن العـــين فأنـــت فـــي صـــميم القلـــب. اعتـــرف أن للذكريات طعما خاصا و مميزا...

قهـوة ممزوجـة بالعسـل الحـر... بـرودة منعشـة فـوق وجـه حليـق ينـزف دمـا... ليـل شتوي مدثر بالنسيان...

هـل يعنـي التـذكر المـوت ؟ هـل نتـذكر لنهـرب مـن عدميـة الفـراغ و سـطوة الوحـدة ؟ هل نتذكر لنحنط الزمن و نخلد في الذاكرة سجلاته ؟

لماذا ؟ لماذا نتذكر؟؟

انتظار

لا أدري كم من الوقت ستستمر الحياة، لكني أريد أن أتذكر ما دامت هناك حياة...

أنا المسافر الذي يجتاز الصحراء، لكن أين الوجهة ؟ الحياة قصيرة، و حتى بأهداف مسطرة نحن نخطو بعناية الهية... الماضي فات، و لعله لم يمت، فهو حاضر فينا بقوة وسحر الذكريات... لكن الحاضر كد يومي، و المستقبل بيد الله...

فرنسا... الزمن الذي مضى... زمن العلم و العمل و الفرح و اللامبالاة...

لقد قضيت أزيد من إحدى عشرة سنة في الضفة الأخرى، و أجزم أني أعرف المعنى الحقيقي للذكرى و الأمل و الالم و الحب و المعاناة. منذ صغري أردت أن أهاجر، أن أترك هذا الوطن، و لم أكن أعلم أني سأعود في يوم من الأيام.

اسمي عبد الحق و اتعهد في هذه الأسطر يا سادتي الكرام أن أقول الحق بدون مغالاة، غير أن كل تشابه مع أحداث إضافية تم تخيلها ليس من محض الصدفة. جلي أن الزمن قصير و أني حين أعزف على قيثارة الذكريات تنثال و تنهال من ذهني صور و وجوه و شخوص و حيوات كاملة تتقاطع في مفترق القدر...

لا أبتغي مجدا بتدبيج هذه الكلمات و لا شهرة أدبية و لا أن يقول الناس عني أني صاحب قلم... و حتى إن كنت صاحب قلم أو أي شيء آخر، فاني سأموت يوما، و أدفن وحدي دون قلم أو كتاب أو أي شيء من اشياء الدنيا الفانية.

أحلام و نهاية الأحلام

لا شيء من كل هذا أيها الأعزاء و لكني أتوق الى تشكيل الماضي و الحنين إليه و استرجاع لحظات تعبق بأريج الانطلاق و متعة أن يكون تفكيرك في يومك و تترك تدبير شوون الخلق لخالق العباد.

امضيت صيفا كاملا في البحث عن عمل، عن عمل أستطيع أن أوفر به مصاريف الدراسة إبتداء من مطلع سبتمبر المقبل. و لعلمكم يا سادة فاني قبلت سلفا للتسجيل في دكتوراة علم الاجتماع باحدى الجامعات الفرنسية... و توجهت الى المولى بالدعاء الخالص من قلب خالص.. إلهي، أرجوك، ساعدني يا إلهي!

قبلت و طار عقلي فرحا، و رقص فوادي رقصته الجنونية المعربدة حينما يستبد به الفرح. و الآن، وجب وضع إستراتيجية لخوض غمار أطروحة دكتوراة من غير منحة دراسية.

حمدت الله سرا و علنا لانه يمكن لي أن أعمل و أعكف على مشروعي العلمي في الوقت نفسه، و عقدت العزم على البحث بكل قوة عن عمل بنصف دوام...

ارسلت من السير الذاتية العشرات، و ربى العدد الكلي على المئة و الخمسين... و عكفت على قراءة مصنفات و كتب كاملة في التحفيز و تنمية القدرات، لعلي استمد من تجارب الآخرين و من قصص نجاح الكبار فيضا من الأمل و طاقة دافعة إلى الامام.

و انتظرت...

هل كان الانتظار طويلا ؟ هل هذا فقط ما تخيلته ؟ هل الانتظار في الخيال المعذب الجامح يختلف عن نظيره في الواقع الموضوعي المجرد؟

المهم أني انتظرت... وطال انتظاري...

ومللت...

أحلام و نهاية الأحلام

كنت كامرأة حامل في شهرها التاسع و هي تترقب المخاض في اية لحظة... مضحكة هذة الصورة التشبيهية لكنها حقيقية. ا ليس إسمي عبد الحق؟؟...

كان ثمة انتظار و ضجر و ضيق و ملل...

و جاء الفرج !

و اشتغلت منذ نهاية يونيو في جني العنب. كان عملا شاقا قصم ظهري وأرغمني على النهوض في الرابعة صباحا و افقدني يا سادتي عشرة كيلوغرامات، فغدوت و أنا أعمل تحت سياط الشمس اللاهبة في سرعة الثعلب ورشاقة النحلة و قوة النسر...

و كانت بداية معرفتي بفريد الذي اعتززت بصحبته لسنوات...

شاب عشريني، رائق السمرة، ممشوق القامة، مفتول العضل، في تقاسيم وجهه مرح إفريقي، و في ثنايا أحاديثه بهجة و أمل و إقبال جنوني على الحياة.

و كان فريد مثلي يطرح اسئلة كثيرة عن جدوى المكوث هنا أو الرجوع إلى الوطن. كان حلمي التعمق في بحار علم الاجتماع، وكان فريد مشروعا لمهندس طموح في قطاع المناجم...

و كنا معا نتقاسم فيضا من الأفكار في السياسة و المجتمع و الدين و حب الوطن. و علمت منذ مدة ليست بالقليلة أن فريد عاد ادراجه إلى منبته و مسقط رأسه و أنه بذلك قد اتخذ القرار الصحيح... علمت بالخصوص أنه سعيد و راض. ا ليس ذلك هو هدف الحياة ؟ سعادة و رضا و غنى عن الناس...

تهانئي الحارة يا صاح، و عقبى لي إذا أراد الله...

و جاء الفرج مرة أخرى....

و وجدت عملين بدل العمل الواحد و الوحيد الذي كنت عنه ابحث. و ذكرني ذلك بالتعبئة المضاعفة التي تسمح بها في الأعياد و المواسم بطاقات الهاتف

أحلام و نهاية الأحلام

الجـوال... و اشـتغلت فـي بدايـة العـام الجـامعي بنصـف دوام فـي توزيـع الجرائـد صباحا و في مطعم الجامعة ضهرا...

الـزمن نسـبي. و عنـدما أرى سـرعة تحقـق هـدفي فـاني لا يسـعني إلـى أن أحـس بشعور غامر بالسعادة و النصر، و يلهج لساني لخالقي بعظيم الشكر...

وكانـت حيـاة حلـوة كلهـا عمـل و إنتـاج و علـم و أسـفار و إفـادة و تشـييد و بنـاء... كـل ذلـك كـان رائعـا، و يدهشـني أن هـذه القصـة المعيشـة كانـت علـى هـذا النحـو...ولسـت ادعـي أن سـنوات الغربـة كانـت كلهـا نجاحـا فـي نجـاح، و لكنـي كنـت دومـا ميـالا إلـى المضـي قـدما نحـو تجـارب جديـدة ومغـامرات جديـدة، لا يهـم إن كللت بالنجاح أو بغيره.

ومـرت السـنوات بسـرعة البـرق، اشـتغلت بالتـدريس بفرنسـا لسـنوات ثـلاث... و مللت من الغربة...

و وجدتني الآن، و أنا أدبج هذه الكلمات، أعمل استاذا جامعيا بأرض الوطن.

العمل و الأمل

يقول الراوي :

" هل أرحل من هذا البلد ؟ هل أغادره دون رجوع ؟ متى بالضبط و كيف ؟

من أين ابدأ ؟ و ما جدوى الحديث عن واقع يكاد يكون مستحيل التغيير ؟

لا يهم... فلأبدأ، فلأبح، فلأكتب...

منذ زمن طويل و أنا أواجه صعوبات في البوح و التعبير و الحديث بصوت جهير أمام من لا أعرف من الملأ، و لكني اليوم قررت أن أكتب هذه الاعترافات من ألفها إلى يائها حتى أستريح. و الحقيقة أن الكتابة وحدها لا تكفي بل إن هناك ما هو أهم. متى ؟ و لم ؟ و من أخاطب ؟ ولأي هدف ؟

هل يهمكم أن تعرفوا اسمي و هويتي و سني، و أن تعلموا أيضا لماذا أخاطبكم اليوم بالذات، و لم أكتب، و ما جدوى أن أخط بالقلم على سطح الورق أحداثا و آهات و صرخات و إخفاقات و نجاحات ؟

لست أنا المهم في هذه القصة، بل هو...

رفيق الفيلالي...

ذكرى الأمس كأنها اليوم. حاضرة بشتى تفاصيلها و أدق أحداثها. بين الماضي القريب أو الزمن البعيد شبر أو أقل... من قال أن الماضي ولى بلا رجعة ؟ من زعم أن الأهم في خط الزمن لحظة راهنة ؟

من قال هذا ؟ من ؟

أحلام و نهاية الأحلام

التقينا لمرة واحدة ربيع ٢٠٠٧. مرة واحدة فقط و لكنها حاسمة، و تقاسمنا الكثير من الأفكار و الرؤى و التأملات. كان الجو رائقا في مراكش، و كنا نشارك معا في أشغال مؤتمر دولي حول حوار الحضارات و الأديان.

كانت المشاركة مداخلة في شكل محاضرة أمام ثلة من الباحثين و المفكرين، كل حسب تخصصه. و لأني أمقت التباهي الثقافي و المكوث طويلا في نقاشات متفلسفة مع الزملاء الأساتذة حول مفاهيم مغرقة في النظرية، فقد اقتنصت أول فرصة، بعد ٣ أيام مضنية، وتسللت رفقته إلى أبعد مقهى نروح فيه عن النفس، و ننسى فيه بعضا من أجواء المؤتمر.

كان المقهى بعيدا عن جامع الفنا، فأنا خلافا لكثير من أبناء جلدتي لا أحب كثيرا هذه الساحة. صخب، وشعوذة، وهرج ومرج وضحك على ذقون السائحين بل وحتى أبناء البلد أحيانا. و أجواء صحيح أنها تغري الأجانب، و لكنها ترسخ واقع المغرب السطحي و الفلكلوري. وبالمقابل، كم أعشق احتساء عصير البرتقال في جامع الفنا. يا إلهي! طعمه رائع، لم أتذوق مثله في أي مدينة أخرى بالمغرب.

جلسنا في المقهى الذي بدا في حمرة المغيب بين صفوف من الشجر ساكنا جامدا قليل الحركة والمرح. و كان ذلك أدعى و أنسب لحديث كله ود وأنس. و سمحنا لعضلاتنا بالاسترخاء و لألسنتنا بالانطلاق في حديث حميمي استمد دفئه لا شك من جو مراكش.

و كان رفيق السباق بالحديث.

- أنا سعيد دوما بالتواجد في المؤتمرات لأن أهم ما فيها هو العلاقات الإنسانية التي تنسج و التي هي - في نظري - أهم بكثير من الأوراق العلمية المقدمة.

- أشاطرك نفس الرأي أيها الزميل العزيز...

-غير أن ما يحزنني و يحز في نفسي هو قلة الإمكانات المادية الضرورية لنشر أعمال المؤتمرات في كثير من الأحيان.

- ليست دائما المسألة قلة مال. أحيانا هي قلة اهتمام و تثمين للمحاضرات الملقاة.

-هذا أيضا موجود. موجود لأننا موجودون في بلد اسمه المغرب.

- مع الأسف، لا نزاول مهامنا بمتعة الأساتذة الباحثين في دول مثل أمريكا أو اليابان أو السويد.

-تصور يا عزيزي أن دولة مكروسكوبية مثل إسرائيل هي رابع بلد عالميا على مستوى البحث العلمي...

-لا أستغرب الأمر بتاتا. إن الارتقاء بالتعليم مفتاح التنمية... و التعليم الجيد يساوي وطنا قويا. اسمعني جيدا، إن تنمية الوطن لن تأتي من الفراغ فهي تحتاج منا الكثير من العطاء و الحب و العمل و التضحية و الالتزام و البذل و الأناة.

و كان الحديث ممتعا ذا شجون، و تشعب و سار بنا ذات اليمين و ذات الشمال، ونحن لا نكل أو نمل حتى من الببغاوية الفكرية أحيانا...

قال أحد المتصوفين (لا أذكر اسمه) أن محبة الخلق دليل ساطع وبرهان قوي على وجود الخالق. هل فكّرنا يوما في معنى الحياة ؟ أكيد، لا معنى لها إلا التعاطف و الحب.

أحببت إنسانيتك العالية يا رفيق و التي كان يزكيها ميلك الطبيعي إلى السخرية البناءة و التعليق على الأحداث بحكمة و بصيرة نافذة. و أحببت أيضا قسمات وجهك المعبر: لقد كان مرآة صافية لما يختلج في أعماقك. عيناك بعمق المحيط، و ثمة بريق من الأمل و الذكاء و العاطفة و الحنان ينبعث منهما.

أحلام و نهاية الأحلام

و كم كان صوتك يجيش بالانفعال و أنت تسرد لي الظلم الذي تراه يوميا في هذا المجتمع، و كان لسان حالك يقول "لا بد للظلم من نهاية، و لنرين يوما في عالمنا مصرع الجبروت ومشرق الأمل و البشائر".

كنت تحس بالقهر في مجتمع أقل ما يمكن وصفه به أنه غابة نفاق وانتهازية وسطحية و مظاهر لا تسمن ولا تغني من جوع. لم تكن قاسيا في أوصافك. كنت صادقا بليغا حد الصدمة. و لم لا ؟ ذاك ما نحتاجه كي نستفيق. العلاج بالصدمة...

مماذا نستفيق؟

من الجهل المطبق؟ من سياسة التجهيل ؟ من أمية المثقفين ؟ من ذل الجاهلين ؟ من التجارة بالدين؟ من الانحلال الأخلاقي؟ من سلطان المال القذر الذي بات يشتري الضمائر و الذمم ؟ من مخزن يهمش المواطن، و مواطن يهمش مواطنا، و وطن يهمش أبناءه و مواطنين دون إحساس بالوطن ؟

دوامة التهميش...

من كل ذلك أيها الغالي، و قطعا أكثر.

اللائحة طويلة لا تنتهي. هل أتوقف أو أكمل ؟

اليأس يستعمرني و يعصف بي من الرأس إلى القدم، و أجزم أنه لن يستقيم شيء في هذا البلد، بعقليات ديناصوراته، و تعليمه الفاشل، و منظومة قيمه المشلولة المتحللة بل المنهارة...

لست متحاملا على أحد، و لكن إلى متى نظل غارقين في غياهب الظلمات و الجهل ؟ مكتبات فقيرة حد الإفلاس من الكتب و المراجع، و طاقم يشتغل بطرق و أساليب تعود إلى عصر الديناصورات في زمن الإنترنت و التواصل الإلكتروني، و عشوائية في كل شيء، و تقرير لأشياء مهمة بمنتهى التهور و

أحلام و نهاية الأحلام

في آخر لحظة، و غياب للتجديد، و قلة مسؤولية، و سياسة تسويف، و تماطل أصبح أداة و أسلوب حكم، و مشروع تجهيل...

لماذا أصبح المثل يضرب بنا في التخلف و قتل الإبداع و وأد المواهب و احتقار الأفراد و اغتيال إنسانية الإنسان ؟

أعلم أن التشاؤم منهي عنه في الدين، و لكن هل يكون التفاؤل الجامح المجنح بالخيال بديلا عن واقعية التشاؤم ؟

صحيح يا رفيق أن فارق السن بيننا كبير، فأنت تدنو من الستين و أنا في نهاية العشرين. غير أن ذلك لا يهم.

كان تواصلنا فعالا ديناميكيا بكل المقاييس. وكان البحر الذي كنته يرفد و يغذي النهر الذي لا أزاله. منذ طفولتي احترمت من هم أكبر مني سنا، و عندما يتعلق الأمر بكبير مثقف مثلك فإن التوقير يكون مضاعفا لا محالة.

دعني أحكي عنك بلغة التعاطف. اتركني أبعث لك رسالة من القلب إلى القلب.

هل تسمعني؟ أين أنت ؟

" أنت تراني أمامك كهلا يحث الخطى نحو الستين، و ترى بوضوح الشيب قد وخط رأسي. اعلم أيها العزيز أني رغم عامل السن فإني أحسني بروح و قلب شاب في مقتبل العشرين. أحب الحياة أيها الغالي. أعشق الأدب و المسرح و السينما و السفر و التجوال، و لعل ذلك ما صان شبابي من الضياع.

أحلام و نهاية الأحلام

كرست أزيد من ٦ سنوات من العمل و البحث الشاق لمشروع بحثي في الدكتوراه. و لم أنه البحث حتى كادت روحي أن تصعد إلى خالقها.

خلال تلك السنوات الست سافرت إلى فرنسا على نفقتي الخاصة مرات و مرات، إذ لم أكن أتوفر على منحة جامعية. كان همي الوصول إلى أقصى وأجود عدد من المراجع العلمية، وفعلا كان ذلك. بمشقة بالغة، ولكن كان. أ وليست العبرة بالخاتمة ؟

تعلم أني أدرس بالجامعة الأدب الفرنسي. تخيل أنه لحد الآن أسافر دون أدنى تمويل جامعي مرارا وتكرارا إلى الرباط أو الدار البيضاء أو حتى طنجة للحصول على مراجع بحوثي في النقد السينمائي ؟؟ تعب و مشقة شديدة و تدريس بلا وسائل و معدات في أغلب الأوقات. ما الحل ؟ لست أدري ما الحل..."

و مر ربيع ٢٠٠٧ ، و تلاه خريف لن أنساه ما حييت لكثرة سوداويته و أيامه الغامقة الغارقة بين ظلال من الكآبة و الفتور، و وجدتني متأثرا و واعيا حتى النخاع بكلام و تجربة رفيق، و بدأت بضعة شهور بعد ذاك أطرح على نفسي ألف سؤال...

هل أرحل من هذا البلد ؟ هل أغادره دون رجوع ؟ متى بالضبط و كيف ؟ فأنا لا أملك من الجرأة إلا القليل، و أبواي كبرا و هما في مسيس الحاجة إلى أن أظل بجانبهما، و أن لا أهاجر لمجرد أن أهاجر كما فعل أخي الأصغر سعيد منذ عامين...

يا إلهي ماذا أفعل ؟ "

في سبيل الوطن

كانت عطلة طويلة بكل المقاييس، و كان الملل يجثم على أنفاسي، و ضاعف من حدة الأمر مكوثي في البيت لمرض ألم بي و تركني طريح الفراش. أبريل شهر التقلبات، و الأمطار الكاذبة، و الأخبار الملفقة، و...

النافذة مفتوحة على مصراعيها، والسماء زرقاء بدون سحابة واحدة. أريد أن أخرج من هذه السجن وأركض في البراري. أريد أن أتسلق الجبال و أقف ولو لبرهة على قممها الشماء ، و لو لهنيهة. أريد أن أصير قمة من هذه القمم، و أن تداعبني الشمس ربيعا، و تلهبني صيفا، و ترطبني خريفا، و تثلجني شتاء.

عزائي أني أزجي الوقت بالذكريات و هي تجري مني مجرى الدم في العروق...

الكون فقير فقير بدون ذكرى لماض قريب أو بعيد. من حسن حظنا كبشر أننا نحتمي بذكريات عهد جميل ولى وكاد ينطوي بقوة الزمن في تضاعيف النسيان.

النسيان ؟

بت اليوم أدمن التذكر حتى لا أذوب في بحر النسيان...

علي. اسمي علي، و أنا في الثامنة و العشرين...

قبل أيام قليلة، ناقشت رسالة الدكتوراة بنجاح، و انهيت دراستي في الجامعة. و الآن في انتظار الهجرة إلى كندا مع مطلع سبتمبر المقبل، وجب العمل بكثافة و توفير بعض المال لهذا المشروع القريب.

أحلام و نهاية الأحلام

كانت رحلة الحصول على عمل معيشي شاقة جدا و تزامن ذلك مع الأزمة الاقتصادية التي تعصف بفرنسا بدون رحمة. نحن في عام ٢٠١٠. و فرنسا، بل أوربا كلها تعيش على إيقاع الأزمة.

شغل قليل، و تصاعد خطير لموجات العنصرية و الكراهية ضد الأجانب، خصوصا العرب. حتى الطلاب المساكين لم يسلموا من ويلات الأزمة، و بات المال قليلا، و الانفاق ضيقا، و حطمت الكثير من الهمم، و بات العديد من الأجانب يحلمون بالعودة إلى أوطانهم الاصلية. وهي في جلها للأسف أوطان فقيرة.

هل هذا هو البديل؟ هل العودة هي الحل ؟

و على فكرة، فان القدر السعيد هداني إلى تجريب طريقة فريدة في البحث عن عمل، بل حتى عن عمل غير مألوف في بلاد الفرنجة.

أسرعت الى الانترنت و قمت بتنزيل إعلان خدمة أقدمها بالمقابل. مدرس خصوصي للغة و الحضارة العربية. الساعة بعشرة يوروهات و المساومة ممكنة طبعا.

تركت في الاعلان بياناتي الشخصية : الاسم الكامل، المؤهلات العلمية، الكفاءات التقنية، و ملخص مفصل للدرس المقترح، مع التركيز على أهدافه و شكله، و تنظيمه و حجمه الزمني (القابل طبعا للتمديد حسب الحاجة و القدرة المادية).

و مر أسبوع، و اثنان، و ثلاثة...

و جاء الفرج من صاحب الفرج... و شعرت بالفرح.

كارول، اسمي كارول و أنا أعمل ممرضة، لا أشتغل في القطاع العام، بل أعمل لحسابي الخاص. مرحبا بك.أحب أن أتعلم العربية. منذ أكثر من ١٠

أحلام و نهاية الأحلام

سنوات و أنا أفكر في هذا الموضوع، و أعتقد أنه حان الوقت لأخرج بفكرتي من السلبية الى الفعل الفورى و المباشر. ألا توافقني الرأي؟

بلى، و حان الوقت بالنسبة لي (قلت في أعماقي) كي أعمل أكثر و أكسب بعض المال.

أحب من العالم العربي، الحروف و الخط، و الأرابيسك، و الرقص الشرقي، دون أن ننسى طبعا الحلويات...امممم... كعب الغزال و البقلاوة و المقروض... و زد على ذلك أطباقا يسيل لها لعابي : الكسكس، و الطاجين، و البسطيلة و الشكشوكة و المروزية و الرفيسة...

مهلا مهلا... (قلت في داخلي)... لقد تحدثت كثيرا عن الأكل... العالم العربي، و المغرب كنموذج له، ذو تاريخ عريق و ثقافة قديمة و متنوعة تمتد لآلاف السنين، فلماذا بالله عليك تختزلينه في الأكل ؟؟

أنا لا أريد أن أقلل من قيمتك و رصيدك الثقافي. فالأيام، و حصص الدروس التي أقبلت عليها بنهم شديد يفوق نهمك للأكل، أثبتت لي جليا أنك انسانة طيبة و خلوقة.

كثر الله من أمثالك في بلد سكانه مسالمون في الأغلب، لكنهم محتاطون بشكل مبالغ فيه تجاه الأجانب.

يا ابن الفرنجة، إذا اختلفت عنك في لون البشرة، أو العينين أو العقيدة، أو الاديولوجية، أو الأفكار، فهل معنى ذلك احتياط في التعامل، و حذر، و توجس، وقلة تواصل، و إقصاء أحيانا ؟؟

الله يهديك...

ليس كل الأجانب "كيف كيف"، و الصالح و الطالح في كل مكان...الاختلاف غنى و فضيلة، أنت تعلم أنه حتى أصابع اليد تختلف في الطول و الأهمية و

الوظيفة. أريدك أن تنفتح أكثر، وتغادر قوقعتك خارجا إلى النور، مستمتعا بألوان الكون اللانهائية.

ألا تحب قوس قزح ؟

و مر عام و اثنان و ثلاثة...

و نشرت بالفرنسية ٣ كتب عن تعايش الغرب مع العرب و المسلمين. و تصادف أني ألغيت مشروع الهجرة الى كندا. إلى متى ؟، أنا هنا منذ أزيد من ٧ سنوات، و بت أمقت الغربة الى حد لا يمكنكم تصوره.

إلى متى ؟ غربة، في غربة، في غربة ؟

وما النتيجة ؟ هل يضيع الوطن ؟

و مر عامان، سريعا، سريعا جدا، بل أسرع مما تخيلت، و عدت إلى المغرب الأقصى كي استدفئ بشمسه الذهبية و ناسه الطيبين، و اشتغلت أستاذا في إحدى المدارس العليا الخاصة بكازابلانكا.

و كان التدريس، لسعادتي البالغة... كان حلما بدأ في المهجر، و تحقق بإرادة المولى في أرض الوطن.

حضرة يوسف المحترم

المغرب بلد جميل، و أجمل ما فيه اناسه الطيبون المسالمون.
كان أول لقاء جمعني بيوسف يعود إلى ٧ سنوات مضت.
إن نيتي عندما أمشي هي أن أطلق لأفكاري العنان و أنظر بشغف الى الغرائب من حولي، و لعل هذا ما يفسر ولعي بالسياحة منذ نعومة أظافري.
و من مصادفات الأقدار أن المقام استقر بي في فرنسا التي جئت إليها سائحا، و عشت بها سنوات وسنوات، قبل أن اقفل راجعا إلى منبت الأحرار و مشرق الأنوار.
في احدى أماسي خريف ٢٠٠٥ كنت اتنزه شارد الفكر في إحدى حدائق نانسي ، وحدي، و لم أكن واثقا من أن الفتى الجالس هناك، وحده أيضا، و الغارق في مطالعة كتاب مجلد ضخم هو مغربي مثلي...
سحنته و ملامح وجهه النحاسي الطويل و سمرته الخفيفة... كل هذه التفاصيل كانت توحي أنه يمكن أن نجد شبيها له في جل دول شمال إفريقيا، أمريكا اللاتينية، أو حتى الهند...
غير أن حدسي الذي لا يخيب و قوة الجذب التي أومن بها حتى النخاع، انباني أن هذا الفتى الوحيد ذي القسمات الامازيغية النبيلة، الجالس هناك، بين صفين طويلين من الأشجار المتلاحمة... هذا الفتى هو مغربي الأصل.
تماما مثلي...
بالله عليكم، هل استحضار هذا الفتى و تخصيص سطور و سطور لسرد جزء من سيرته، هل ذلك ترف أدبي أو مضيعة للوقت؟
كلا و ألف كلا...

أحلام و نهاية الأحلام

لقد أثار فضولي منذ مدة ليست بالهينة كيفية برمجة الناس للنجاح، و كيف أن ما وصل اليه الكبار من رفاهية، أو قوة أو علم أو مجد شخصي أو سلطة اجتماعية أو سياسية... كل هذا كان حتما نتاجا لتخطيط طويل وعمل دؤوب.

و كان و ما زال يتملكني شعور بالإجلال العميق، و بالاحترام الشديد، لكل إنسان ارى من خلال الحديث معه أنه صاحب مشروع طموح أو حلم كبير أو مجد عظيم يريد أن يصل إليه.

و بقراءة سير العظماء و سماع قصص النجاح، نستطيع كلنا أن ندرك المعاني الحقيقية للتوقير، و الاحترام، و التضامن و التعاطف.

غير أن ما حدث مع يوسف كان خلافا لكل هذا بشكل تام. منذ عرفته و إلى الآن و هو يتدهور و يمضي من سيء الى أسوأ.

ما السبب؟ ما الأحرى جملة العوامل المباشرة التي أدت به إلى الإفلاس المادي و النفسي و الفكري؟ كيف استخدم يوسف طاقته المدمرة في الكثير من المواقف ؟ كيف دمر حياته على الرغم من ذكائه و طيبوبة قلبه الشديدة ؟

الحقيقة هي أنني لطالما وددت أن أحادثك بالهاتف لأعرف آخر أخبارك...

حتى الفيسبوك و تويتر بحثت فيهما عن وجود لك، مرار و تكرارا، و لكن بدون فائدة.

أيها الغائب في الزمكان، الحاضر دائما و أبدا في القلب، دعني أرسل لك مليون تحية وألف سلام.

هل أنت بخير ؟

اشتقت إلى وجودك إلى جانبي رغم كل شيء، فالصداقة أثمن ما في الوجود...

أحلام و نهاية الأحلام

في الماضي عندما كنت في السادسة أو السابعة عشرة، كان بوسعي أن أفكر: ألبومات الصور مهمة لأنها تسمح بتوثيق حلقات و مراحل أساسية من حيوات تتلاقى في مفترق الندية والصحبة الصافية.

في الواقع، لم نورخ يا يوسف لصداقتنا بالكثير من الصور لاني منذ أن كرهت أن أكون حبيسا للكاميرا (على عادة السياح الآسيويين الذين يحملونها معهم في كل مكان) ، أحببت أن استلذ باستحضار أهم محطات الصداقة مغترفا من معين الذاكرة الذي لا ينضب.

أما اليوم فمع الانفجار الرقمي و المعلوماتي و ما يصاحبه من تداول و تقاسم و تنزيل مهول للصور على الحواسيب و الشبكات الاجتماعية فاني اخترت أن اختلف و أنفرد و لذا فعندما يقذف بي الحنين بين طيات الماضي، أجدني أتذكر، و أتذكر، و أتذكر...

و آخذ قلما و حزمة أوراق، و اكتب...

حياؤك الطبيعي يا يوسف و قامتك النحيلة و ملامحك النبيلة و كرمك و تواضعك... صور تعلق بشدة و بخلود في الذاكرة.

من المستحيل نسيان الاشخاص الطيبين أيها الطيب.

و ليس السفر الذي قمت به من جنوب المغرب الى أقصى شمال فرنسا رغم الفقر و ضيق ذات اليد للدراسة أولا و الاستقرار ثانيا، ليس رهينا بالمال، و لكن بشجاعتك و رغبتك في بناء مستقبل أفضل.

و لكن هل كان ذلك ؟ هل تم لك ما أردت و نويت ؟

تجري الرياح بما لا تشتهي السفن...

"تصور يا جلال أني في فرنسا منذ ثماني سنوات، و لم أستطع إلى حد الآن أن اندمج في هذا المجتمع. أنت مطلع مثلي على اشكالية الحلال و الحرام في المأكل و الاختلاط. ما يحز في قلبي أني أسكن هنا بعيدا عن المسجد، وهذا

يحز في قلبي و يجعلني أودي صلواتي في آخر النهار. في المرة الماضية، لم يوقظني المنبه و ضاعت مني صلاة الفجر...

"... مزاجي اليوم متعكر، و سامحني لاني انغص عليك بحكاياتي ومشاكلي التي لا تنتهي. هل أنت مستعد لسماعي أكثر؟ طيب... لقد جاوزت الثالثة و الثلاثين و لم أتعرف قط في حياتي و لو على فتاة واحدة. أريد أن أتزوج و في الحال، تعبت، أكاد انفجر. نحن رجال، و أنت سيد العارفين و الفاهمين و لا حياء في الدين. إسمع... لقد تخليت عن مشروع اطروحتي في العلوم السياسية، تعلم أني في عامي الثالث ولكن لا يهم. مكتوب...

"...على فكرة، اليوم تعاركت مع زميلي دانيال في المطعم الذي أعمل به لأنه حدجني بنظرة عنصرية... كنت اتوقع بفراستي أن ذلك سيحصل إذ تجاهلني في العمل طيلة الأسبوع. يقول لي الكثير من أصحابي أني بطيء، ثقيل الحركة و أني سلبي... غير أني لا أعتقد ذلك. متى كان الهدوء و السلام الداخلي و الخارجي علامة على السلبية أو الكسل ؟...أكره المطعم و الناس...

أكره نفسي أيضا...

"...منذ ٥ سنوات و أنا أعمل في هذا المطعم اللعين دون ترقية، لم يزد راتبي و لو سنتيما واحدا، على عكس كل العاملين، أليس هذا بظلم؟ ما ذنبي أن أكون أجنبيا ؟ إني أمقت العنصرية، و أحلم بالعودة إلى المغرب، ولكن هل أجد عملا؟...

'...لا أعتقد، البطالة خانقة في بلدنا، و احتقار جيراني لي بالمدينة التي أسكن بها سيكون أمرا موكدا. سيقولون : ما الذي حمله على الرجوع إلى البلاد خاوي الوفاض، بدون عمل أو دبلوم، أو سيارة فارهة أو على الأقل زوجة شقراء تنسيك روية عيونها الملونة الهم الذي نكابده كل يوم؟ ها ها ها...

أحلام و نهاية الأحلام

"...الحياة في فرنسا يا صاحبي مثل الفاكهة المهجنة، براق لونها و لكنها بلا طعم..."

و على ذكر الفاكهة أيها اللعين (و هذه طريقتي الخاصة في مناداتك كل مرة، وهي تنم عن ندية كبيرة و تكسير للحواجز)... اشتقت إلى سلاطة الفواكه التي تبرع في اعدادها و التي لم تنقلها حرفيا من قناة فتافيت، ولكنك طبعت عليها بصمتك الشخصية...

اشتقت أيضا إلى طبخاتك الرمضانية الفريدة : دجاج مقلى باالليمون و الزيتون، طواجين الخضر، السمك المشرمل... حتى المقرونة أيها اللعين فانك تتفنن كل مرة في طهيها، و بطرق مختلفة...

في الطبخ برهنت عن "تمغربيت" لا تضاهى، و عن حساسية عز نظيرها. ا ليس كبار الطباخين العالميين رجالا ؟؟

أعزك و احترمك كما أنت، بحلوك و مرك، دمت بود، و إلى لقاء قريب أيها الحاضر الغائب، إلى لقاء قريب أيها العزيز...

اعترافات عبد العزيز

يقول عني من رآني و عاشرني لمدة كافية أني شاب لطيف أنيق ، خفيف الظل، صاحب نكتة و كارزمة ، و إن كان مزاحي ثقيلا في بعض الأحيان. لكن لا يهم، فلا عيب أن يكون مزاجك رائقا، و أن تحاول قدر ما تستطيع أن تسعد من حولك.

أما عن أوصافي الجسمانية، فإليكم يا سادة السمات التالية :

" الطول متر و ثمانون، كستنائي الشعر أجعده، أسود العينين فاحمهما، قوي البنيان، صاحب عضلات غير مفتولة، و صوت جهوري، و كرش ضخمة "

أهم عنصر في هذه اللائحة الوصفية يا أحبابي هو الكرش الضخمة.

هل يهمكم أيضا أن تعرفوا أن اسمي عبد العزيز الشيخاني الطلياني ، إن بحثتم عني في الفيسبوك مثلا فلن تجدوا لي أثرا، سواء كان البحث بكتابة اسمي بالعربية أو الفرنسية.

أنا لا أحب كثيرا مواقع التواصل الاجتماعي، رغم وعيي العميق بالدور الذي لعبته في تقريب المسافات، تسهيل التواصل و جعله غارقا في الحميمية و المرح، ولا أستطيع أن أنكر أيضا الدور الفعال الذي لعبته في الحراك السياسي و مواكبة وتاطير إنتفاضات "الخريف العربي"...امممممم...عفوا، الربيع العربي...

آه يا ربي ! مشكلتي مع البدانة ترجع إلى الثلاث السنوات الأخيرة. ذات يوم قرأت في :الشرق الأوسط ما يلي

"تعتبر البدانة من أكثر المشاكل شيوعاً في الممارسة الطبية. ورغم سهولة تشخيصها وتحديد أسبابها، فإنها من أصعب الأمراض علاجاً، وأقلها شفاء أو

تحسناً على المدى البعيد. ويعود ذلك إلى أن ظاهرة البدانة معقدة، وتتدخل فيها عوامل كثيرة: وراثية، نفسية وعاطفية، اجتماعية (صداقات، علاقات اجتماعية، أعراف وتقاليد اجتماعية)، اقتصادية (وفرة الطعام، وسائل المواصلات)، وعوامل بيئية ومناخية...."(

ركزوا معي جيدا...

قبل أن أصبح بدينا ، كنت رشيقا و رياضيا بامتياز. و هذا يعود إلى الزمن الذي كنت أسكن فيه ببلجيكا. كنت في الوزن المثالي : ٧٧ كلغ، و الآن وزني يزيد على... أحس بالحرج... هل اعترف؟ وزني الحالي يفوق ٩٥ كلغ. أعرف أن هذا الوزن طبيعي بالنسبة لفتى طويل مثلي في بلد الأكل و الولائم و "الشهيوات" بجدارة.

عندما أقول أن المغرب بلد الأكل اللامحدود أحيانا، فانا صادق إلى حد كبير في ما أقول. نحن نعيش في بلد يحتفل بالأكل، و يعشقه، و يتفنن في طبخه، و يصرف من أجله الكثير من الأموال وخاصة في الأعراس و المناسبات. و ما اكثرها أيها الأحباب، و دامت لكم الأفراح و المسرات.

في بلادنا الاكل لذيذ جدا...توابل، و عطور، و ألوان، و نكهات أكثر من رائعة. و هناك، في الضفة الأخرى من المتوسط، طعام بلا طعم، اللهم إلا طعم الكاوتشو...

و الاكل أو كثرته... الاكل ارتبط دائما، في جميع المجتمعات البشرية، منذ فجر التاريخ، وعلى مر العصور، بمعاني الكرم و الضيافة والبهجة. ونحن كمغاربة بارعون في هذا المجال. شعب كريم أكول و مضياف، يعيش أغلب ابنائه حياتهم يوما بيوم، دون التفكير كثيرا في المستقبل و دون تخطيط دقيق له. بل أنه في أحايين كثيرة، ينعدم التخطيط.

و عايشين.

و بخيييير...

ربي كبير والدنيا هانية، و اللي زربو ماتوا و في العجلة الندامة، و في التأني السلامة، و مهما بذلت من جهد فانك ستموت يوما، و مصيرك إلى اللحد. فلم السرعة و التوتر و إتلاف الاعصاب على الفارغ ؟؟

و على ذكر التأني فان الإكثار منه يعني ميلا أوتوماتيكيا إلى الراحة، وكثرة الراحة تصيبك بالكسل، فتغدو إنسانا معجازا، قليل الحركة، و ربما بدينا تثقل على الكرة الأرضية، و هذا ما حدث لي، يا سادة، في السنوات الثلاث الاخيرة.

الاطباء ينصحون كلهم بالتخلص من الوزن الزائد عن طريق الرياضة و المشي و التقليل من الأكل الدسم،و التحلي بعادات فن العيش و نشدان الحياة الصحية المطيلة للعمر (والأعمار بيد الله) و تجنب التهام الحلويات المغرية.... و كل هذا لا أقوم به، فلماذا ؟؟

...لاني بكل بساطة استسلمت للتساهل المفرط مع نفسي، و اقتفيت غريزة النهم. و كانت العواقب وخيمة. احساس مزمن بالكسل، زيادة مهولة في الوزن، رغبة خالدة في النوم و مشاهدة المسلسلات التركية في المساء على إيقاع خشخشة رقائق التشيبس.

خش... خش... خش... كم هي لذيذة...

صحيح أني أعمل كثيرا و لا أجد الوقت الكافي لممارسة الرياضة. أنا رجل أعمال ثري و ناجح ماديا و إجتماعيا بشهادة كل من يعرفني. اتنقل بشكل مستمر، و على مدار الأسبوع، على متن سيارتي الرباعية الدفع، بين مراكش و الدار البيضاء والرباط و طنجة. عمل كثير و صفقات و لقاءات لا تنتهي مع كبار رجال الأعمال الأجانب.

المصيبة أني في الأشهر الأخيرة بالذات أصبحت "بطوزا" بشكل لا يطاق، بشكل مقرف... وغدوت أحس بالافلاس الصحي و النفسي الحقيقي. لم أعد أجد ثيابا بمقاسي و أصبحت أفكر (أقولها و التعاسة تخترقني من الراس الى القدم)... في تفصيل ملابسي لدى الخياط و توديع الملابس الجاهزة...

أتذكر شابا في نهاية العشرين كنت قد شاهدته في برنامج وثائقي مغربي يشاركني المشكل نفسه. كان منتفخ البدن عظيم الأوداج و الرأس يرتدي في المناسبات القليلة التي يغادر فيها بيته، ملابس سوداء قاتمة، و نظارات شمسية و قبعة مضحكة الشكل.

و الغريب في الأمر أني بعد التعرف عليه في الوثائقي كنت التقي به مصادفة وهو يتجول ليلا على كورنيش طنجة، و كنت ارمقه بنظرة طويلة، وتتلاقى عينانا لبرهة وجيزة، فتتولد عن ذلك شرارة من التعاطف و التضامن المثير للرثاء.

في الهوا سوا يا حبيبي...

كانت بدانة هذا الشاب مرآة لمعاناتي الداخلية، و كانت تثير في الشفقة لحالنا نحن الاثنين، فكنت أراه قريبا مني جسديا و روحيا.

و فيما بعد قرأت في الجرائد بمحض الصدفة (وكان الخبر مرفوقا بصورته في صفحة الحوادث) أنه تعرض ذات ليل شتوي عاصف للسرقة والقتل في شاطئ طنجة و عثر عليه ملقى على الرمال، و عيناه مفتوحتان عن آخرهما، و أطرافه متيبسة من الصقيع، فيما الدماء تضمخ وجهه و صدره.

أثر في الخبر، و لوهلة قصيرة تمنيت لو أنني قد عرفت اسم هذا الشاب القتيل. ثم ندمت فورا على هذه الأمنية المجنونة السوداء وغصت في مستنقع من الحزن.

أحلام و نهاية الأحلام

و شعرت أن هذا الفتى ودع العالم و في دخيلته تاريخ لم يحكه لبشر، و أنه ربما في الثانية التي تلاقت فيها عيوننا ذات يوم، أراد أن يبوح لي بأسرار كانت طي الكتمان.

دعكم من هذا الفتى الآن، لقد غادر الدنيا و لعله يتلذذ في هذه اللحظة باحتساء كوكتيل فواكه لا يقاوم في جنان الفردوس، و عن يمينه و شماله حور عين حسان يعزفن له، و يغنين و يرقصن في مشهد كله سحر و خلود، و لعله تخلص من الوزن الزائد فغدا أرشق من الرشاقة.

و أنا ماذا ينتظرني في دنياي؟

ما الذي يضاعف من همومي كل يوم ؟

بدانة إضافية، و كآبة، و حزن، و خمول، و قريبا -إن شاء الله- تدهور في العلاقات و العمل و الانتاج...

سامحوني إن فرقعت مرارتكم بشكواي، أرجوكم سامحوني...

الساعة تشير الآن إلى الثالثة صباحا، و أنا نعسان، أنا أموت تعبا، أريد أن أناااااااااااااااام...

تصبحون على خير...

مواطنون بلا وطن

اسمي عفاف أحمد عبد المقصود، و أنا في الثالثة و الثلاثين.

من الصعب علي أن أصف لكم هيأتي، غير أن كل من راني و خالطني شهرا أو شهرين يستطيع أن يقول الآتي :

" رشيقة، شرقية الملامح، طيبة القلب، حلوة المعشر، و في عينيها دفئ و شجن و عسل و حنان و كتمان وبوح..."

هذه أول مرة نزور فيها المغرب.

زيارتنا للمغرب تكتسي طابعا خاصا، فهدفها البحث عن عمل و الاستقرار في هذا البلد الذي سمعنا عنه، أنا و زوجي تامر، اشياء مشرفة. شعب منفتح و بلد مضياف، أصبح الكثير من الاوربيين يقصدونه للعمل (و نحن منهم بحكم حصولنا قبل ٤ سنوات على الجنسية الاسبانية، هذا رغم أصول زوجي السورية وأصولي المصرية) ، بحكم النمو الذي يعرفه، رغم الأزمة الاقتصادية الخانقة التي تعصف بدوله الصديقة، في الضفة الأخرى، شمال المتوسط في الالدورادو سابقا : أوروبا...

نحن في طنجة، على الكورنيش، نتأمل بعيون حالمة زرقة البحر، ونرى غير بعيد، بفعل وضوح الروية، طيفا من جبال الاندلس. كيلومترات قليلة تفصلنا عن إسبانيا لكننا في طنجة.

يا لسحر هذه المدينة ! قرأت عنها ذات يوم في احدى الصفحات على الانترنت، قبل أن نزورها هذا العام، ما يلي :

أحلام و نهاية الأحلام

" هنا تبتدئ دوخة الأحاسيس وفتنتها... وهنا أيضاً يخيِّم ذلك الجو السحري أو السري الموروث عن تلك الأيام الخوالي عندما كانت طنجة لا تزال مدينة دولية. إنها طنجة البيضاء، نجمة الأفلام السينمائية العديدة، ومدينة النجوم الكبار..."

السماء غائمة، الطقس مكفهر و قطعان الغيوم تزدحم في سماء رصاصية أثقل من حزني الأسطوري. كتلة الانفعالات بداخلي براكين لا تهدا، أحصنة جامحة تثير بركضها الجنوني و حوافرها زوابع الغبار. و في قلبي تسكن زوابع الالم و اليأس.

و لم كل هذا الحزن؟

كيف أبدا، و من أين أبدا، و لم اكتب، و هل الكتابة هي الخلاص؟

رباه! الحزن شديد، والقلب بركة دم، القلب يقطر دما، و لكن عنادا خياليا يجتاحني.

سأكتب...

ساترك القلم يمزق عذرية الورق، فيولد من ذلك صوت و شهادة و حكاية و ألم و أمل و دعاء إلى الله بغد أفضل. أحببت تامر منذ ثلاث سنوات، و تزوجنا منذ عامين. كان وما زال حبا جنونيا، صادقا، وجدانيا، وأجمل ما فيه أنه كلل بالزواج.

و هل هناك أفضل من الزواج بالنسبة لفتاة عربية مثلي؟ يقول عنه الدين أنه إحصان و عفاف، ويقول عنه الرجال أنه نصف الدين،و يقول عنه بانفعال الشباب المتحرق اليه و الذي لا يجد إلى ذلك سبيلا سريعا أنه الدين كله، و تقول عنه النساء أنه حب و إستقرار وأسرة وأطفال. و يقول عنه أغلب

أحلام و نهاية الأحلام

الشباب الغربي أنه سجن لا يطاق، و التزام اجتماعي فارغ قهري، و عبودية و روتين و نقص في المخيلة و الابداع.

تزوجت تامر في مدريد (بحكم عملنا نحن الاثنين هنا منذ أزيد من ٧ سنوات)، و كان حفل الزواج رمزيا بسيطا اقتصر على حضور عدد قليل من المقربين و الأصدقاء. لم نكن نملك المال الكافي لإحياء حفل زفاف أكبر. و لكننا كنا سعداء، وكان هذا وحده كافيا ومبهجا.

و كانت أمي سعيدة جدا، و أخبرتني فيما بعد أنها تلت من أجلي كثيرا من القران جلبا للبركة، دون الحديث عن الأدعية المنجية من حسد الحاسدين و حقد الحاقدين.

و تم زواجي بتامر، و تحقق حلم و مشروع الارتباط، و انتقلنا إلى العيش في بيت صغير و هادئ غير بعيد عن وسط المدينة و كانت الاسابيع الاولى سمنا على عسل، و عشرة على عشرة، و غراما لا ينقطع، و بالا مرتاحا...

لم يكدر صفوها شيء.

و قامت الثورة في مصر، وبعدها بأشهر قليلة في سورية.

وصادف هذا وذاك فقدان زوجي لعمله تحت وطأة الأزمة الاقتصادية. و أصبحت الحياة جحيما، لكننا تذرعنا بالحب الذي بيننا، رغم أن الحب لا يوفر وحده رغيف الخبز و لقمة العيش.

و عشنا الفقر، و تراكم الديون، و التشرد الروحي...

و كاد زواجنا ينهار لولا العناية الالهية، و التجمل بالصبر، و بركة دعاء أمي لي، و تحكيم سلطان الحلم و العقل.

و هالنا ما شاهدناه في مصر و سورية من دمار، و دم، و تقتيل، و تنكيل، وتصفية حسابات، و غل، و حقد، و ثورة فاشلة و تشاوم للأهالي، و معنويات

محطمة، و تزييف للأحداث من قبل بعض وسائل الإعلام، و من شماتة الأعداء و فريق من الاخوة المزيفين الأعداء...

و اقض مضجعنا ما شاهدناه في الفضائيات و ما قرأناه في الجرائد و المدونات من حرب أهلية، و شبيحة و بلطجية... و استهداف للجماعة و قائد معزول و آخر في السجن لكنه سيغادره عن قريب...

...و بداية ثورة، و نهاية ثورة، وسرقة الثورة، و الانقلاب على الثورة،و شرعية و عدم شرعية، و مسيرات غضب شعبي و الرغبة في محاكمة من سرقوا الثورة، ودنسوا الثورة...

أصابنا الذهول، و لم نعد نفهم شيئا من كل هذا. والو ! (كما يقول المغاربة).

لا نعرف من يقتل من، و من يبيد من، و إلى متى، و بأي ذنب يقتلون، و باسم أي دين يتصارعون و تحت غطاء أي ذريعة إنسانية أو حضارية أو نهضوية يفعلون و لمصلحة من يخربون و يفتكون و يحرقون و يهدمون ؟؟؟

من المستفيد من كل هذا الدمار، من ؟؟؟

و في قمة ضيق ذات اليد في إسبانيا ، و الحنين الجارف الى الوطن، فكرنا رغم كل شيء في العودة إلى الوطن... إلى مصر أو سورية، لا يهم... وكان ذلك مستحيلا...

مواطنون بلا وطن...

يزعمون أنها ثورة

كان من عادة عبد الحميد أن يجلس كل مساء في مقهاه المفضل وحيدا أو رفقة شلة الأصدقاء، و ذلك حسب الظروف و الأحوال.

كان يستمتع بتلك اللحظات التي يقضيها في المقهى، و لو لسويعة قصيرة، فإذا اتخذ مجلسه المعتاد، و بسط فوق الطاولة جريدته اليومية أو كتابه الشهري، كان سريعا ما يشعر بالألفة و الحميمية و يجد ألف سبب و سبب ليطيل قدر الامكان موعده الأثيرمع هذا المكان السماع للأسرار، اللماع بالأضواء، و الطافح بمودة الأقران أو خلوة الإنسان بنفسه، بعيدا عن ضغوط يوم كامل، و كانت هذه الخلوة هي ما يرومه الآن صديقنا عبد الحميد.

و كانت تستبد بفكره عاصفة من الأفكار و التأملات...

هل ضاعف من حدتها نزعته الفطرية إلى الرومانسية ؟ هل لأنه ولد و سكن دائما في هذه المدينة البحرية الرابضة عند أقدام المحيط ؟ هل لأن البحر معناه حرية و انفتاح و شجاعة و انطلاق و سبر لأغوار المجهول ؟

العرائش... هنا بحر و نهر، و سمك و مد و جزر و حنين الى زمن لم يخلق بعد، و فن و شعر و عيون دافئة، و قرص شمس حزين و أمواج متلاطمة... هنا احتفالية النوارس و عطر البحر و بسمة الدراويش...

أحلام و نهاية الأحلام

"يزعمون أنها ثورة، و تتناقل وسائل الاعلام كل يوم أنها ثورة، بل أكثر من ذلك، فهي في نظرهم ثورات مباركة تندرج في ربيع عربي، كله حراك و تغيير و نضال وتوزيع جديد لأوراق الكوتشينة السياسية."

غير أني - يا أعزائي القراء - لا اتفق بتاتا مع كل ذلك. كيف لها أن تكون ثورة و الثورة على رأي القذافي مؤنث الثور ؟ ها ها ها... كيف لها أن تكون ثورة و الثورة الحقيقية تشترط رؤية إستراتيجية و برنامج عمل واضح و إصلاح سياسي منهجي يتم تطبيقه على مراحل، و، و، و... بدون تصفية للحسابات، أو تحريك عنيف لطاحونة الانتقام من أصدقاء الأمس أو رغبة في استبدال دكتاتورية بأخرى أو جبروت فردي بآخر جماعي ؟؟

متى كانت الفوضى، و التكسير و التقتيل و التخوين والتجريم من طرق الاصلاح والقضاء على الظلم؟

متى كان الانقلاب على شرعية صناديق الانتخاب و رفض تسمية الجرائم بأسمائها من باب المداهنة و استغباء الرأي العام و كسب ود الغرب على حساب الشعب و سحق الآخر باسم الدين أو النظام أو حب الوطن أو الديمقراطية أو البحث عن المصلحة المشتركة...

متى كان كل ذلك إنسانيا أو مثمرا أو مجديا ؟؟؟

إن الذي يحدث فوضى في فوضى، و لا معنى لكثير من الصراعات و النزاعات و السجالات... لم نعد نفهم من المحق وسط كل هذا، من الجاني؟

أحلام و نهاية الأحلام

من المجني عليه؟ من الجلاد و من الضحية ؟ أين يبدأ الحق و أين ينتهي الباطل ؟ ما هي الحدود بين الواقع و الوهم؟ هل ينقلب السحر على دعاة الفتنة و صناع الأكاذيب؟ ما معنى كل ما يحدث يا إلهي؟؟؟

دوامة اللامعنى...

توقف عبد الحميد برهة عن التفكير، و جال بعيدا ببصره حيث يتقاطع حد المحيط العميق اللانهائي مع صفحة السماء في عناق أزلي لا مثيل لسحره. وضاعف من سريالية المشهد وقت الغروب الذي لف الدنيا بغلالة من الحزن والأسى.

لم يحتج عبد الحميد الى تكوين سياسي متخصص أو المام بأحدث النظريات الحضارية و الجيوستراتيجية حتى يدلي بدلوه و يكون أفكارا شخصية عما يدور هذه الأيام من وقائع جسام ينقبض لها القلب... عما يدور من "ثورة" أم "ما بعد ثورة" في سورية و مصر و تونس و ليبيا. حتى مصطلح الثورة لم يكن متفقا معه بتاتا.

و رشف عبد الحميد رشفة أخيرة من فنجانه، لقد كان قلبه باردا مثل هذه القهوة، وكان مستقبل العالم العربي بالنسبة له على كف عفريت، كان مجهولا غامضا لن تنجح حتى أمهر العرافات و قارئات الفناجين في استطلاعه و تبين ملامحه !

و كانت الأفكار تزدحم وتغلي كالمرجل في ذهنه :

" مصر وسورية وليبيا و تونس لم تشهد في واقع الأمر ثورة، ما حصل هو مجرد انتفاضة شعبية على نطاق واسع ضد جيوش الظلم و الفقر والجوع و الاحتقار و الطبقية الصارخة، قبل أن يلبسها بعض السياسيين رداء المطالب السياسية الذي تفوح منه رائحة كريهة عطنة لنفاق سياسي لا حدود له.
المسلسل بدأ بصفعة بوليسية لذات بوعزيزية، و كان ما كان : إضرام للنار في الجسد، وغضب شعبي في تونس، و انتفاضة و انتشار للنار في هشيم دول أخرى...
أكره الثورات، أكره نفاق السياسيين، و تضليل الاعلاميين و تحريض المحللين و انتهازية آخرين. ماذا تحتاج الثورة الحقيقية ؟ التركيز على التنمية الاقتصادية، هذا لأن الشعوب و بكل بساطة تريد أولا الخبز و العيش الكريم..."
نظر عبد الحميد إلى ساعته. انها العاشرة مساء و العتمة مطبقة، غير أن السماء الملتحفة بين ستائر الظلام ، تبدو و كأنها تبتسم.

دين و دعوة و دولارات

ترامت نجاحاته إلى مسامعي منذ سنوات عديدة، و قد تداول عنه الملايين أنه شاب ذكي محبوب ثري ذو وسامة و وجاهة و حضور.

رغبت في التثبت من ذلك بنفسي. فاقتفيت أثره و عكفت على مشاهدة برامجه و سماع شرائطه، و اعجبت بحماسه و قدرته على أن يلهب مشاعر الجماهير و يشعل فيهم نار الرغبة و النشاط و الفعل.

راقتني جرأته و هو يتحدث عن علاقة الايمان بالتنمية و ضرورة اشراك الشباب في العمل التطوعي و عن مركزية العاطفة في كل حياة سليمة متوازنة، و إلزامية القيام بنهضة فكرية و حضارية في العالم العربي والإسلامي.

و أعجبني كيف اخترق القلوب والأفئدة في رقة وحنان فملكها و كيف دخل البيوت من أبوابها في أدب جم حاملا رسالة التدين و مشعل الايمان فأضاءها وأحياها.

و أثار انتباهي حديثه الموصول عن البرمجة اللغوية العصبية (اكيد أنه تلقى دورات مكثفة منها و اغترف من معينها) ، و عن استراتيجيات النجاح، و عن تقنيات تطوير الذات و اخراجها من الأزمات و وجوب ربط كل هذه الأشياء بالسلام الروحاني و مرضاة رب العالمين.

و أسر لبي عبر برامجه بالقنوات الفضائية وأحاديثه في النوادي و ما أضافته من بصمة جديدة للدعوة حتى أن البعض قد أطلق عليه لقب "الداعية الأنيق" لعنايته بشكله الخارجي.

و كنت مهتما بتصاعد شعبيته و ما جرته عليه من صدام مع السلطات. لكن أسطوانات الفيديو و الأوديو التي سجلت عليها دروسه و مواعظه ما زالت من أكثر المنتوجات التثقيفية مبيعا في العالم العربي.

ما أروعه و هو يكلف الشباب بالانخراط في المشاريع الصغيرة و يقترح عليهم وصفات بسيطة و عملية للخروج من البطالة، و ما أجمل همته و هو يحث مريديه على العلم و التعلم و الانجاز و التعبير عن المواهب و كسر أغلال الجمود و السلبية.

كان الرجل يلوح في قمة النشاط و العطاء و السعادة و هو يجوب الكرة الأرضية شرقا و غربا لإلقاء المحاضرات و المشاركة في الندوات و الترويج لنموذجه الفريد في التنمية. و في خضم رحلاته و جولاته التي لا تنتهي، يحرص الرجل على التواصل الدائم مع معجبيه على صفحات الفيسبوك و في غرف الدردشة الإلكترونية هدفه في ذلك تقاسم الأفكار و تمتين عرى المودة.

كيف أمكن لهذا الرجل ذي الخامسة و الثلاثين ربيعا أن ينجز كل ما أنجز في زمن قياسي ؟ كيف كان سببا في تحول آلاف الشباب من طريق المخدرات و الادمان و الفراغ إلى الجدية و الانتاجية وتحمل المسؤولية ؟ كيف استطاع أن يتربع على عرش الشخصيات الأكثر تأثيرا و كارزمة في شمال إفريقيا و الشرق الأوسط ؟ كيف نجح في أن يصبح خطيبا مفوها و من اشهر المحاضرين و أصحاب البرامج التلفزيونية الناجحة و هو لم يحصل سوى على دبلوم بسيط في تسويق المبيعات ؟ كيف حالفه الحظ فاضحى من كبار المليارديرات و من أكثر المقربين إلى الساسة و صناع القرار؟

قبل أن أنوي الاجابة عن هذه الأسئلة وغيرها لا شيء يمنعني من أن اتقاسم معكم دهشتي و انبهاري لنجاحات هذا الشاب الثلاثيني المتواصلة نجاحا تلو

الآخر، و لكن أكثر ما يصيبني بالدهشة كوني هذا الرجل... أنا هو، و هو أنا، و مسيرته الظافرة هي مسيرتي أنا...

عندما أدرك أن كثيرا من أحلامي تحققت بسرعة البرق، يتملكني شعور طافح بالفخر و ينتفخ صدري من الزهو. ليس لاني كائن خرافي أو خارق الذكاء، و لكن بكل بساطة لاني أعي بعمق معاني العمل الجاد و الالتزام و التفاؤل اللامحدود و القدرة على الأخذ بزمام الأمور و ممارسة السلطة.

الأحلام، العمل، الالتزام، الزهو، التفاؤل، السلطة.... كل هذه الكلمات حلوة و لها رنين سحري في الأذن...

و لكن من أنا ؟

أحمد محمد عبد السلام ، ٣٥ عاما، داعية إسلامي، لست خريج جامعة إسلامية و لا تلميذا لكبار علماء الدين ولا شيخا ... ولكني أعمل مسؤول مبيعات، و علمت نفسي بنفسي قواعد الدعوة و مهارات التواصل الفعال مع الجماهير.

عايشت المجتمع بكل أطيافه وبكل عقلياته وعرفت الداء وشخصت له الدواء...

و نشرت دعوتي وركزت معظم جهدي على الشباب. وحضضت على الصلاة في وقتها واحتشام البنات في اللباس و تحليهن بالأخلاق السامية في كل المناسبات، وكانت قدوتي في ذلك سيرة الرسول عليه الصلاة و السلام وخلفائه الذين تعلمنا حياتهم أجمعين معنى جهاد النفس والصبر على الأذى في سبيل كلمة الحق.

أنا متزوج و أب لثلاثة أطفال و عصري بامتياز، فوجهي حليق، لا أعرف الجلباب و العمامة و استعيض عنهما ببذلة أوربية أنيقة و رباط عنق يختلف لونه حسب لون البذلة طبعا،أما فيما يخص مواعظي فهي ملقاة خارج

المساجد، بعيدا عن سلطة المنابر، فمكانها الطبيعي الفضائيات و لكل راغب في تكرار مشاهدتها فان لها مكانا موازيا على الانترنت من خلال موقعي الشخصي.

إن للتكنولوجيا سلطة خاصة، فبفضل الإعلام الجديد وصلت الى عقول و قلوب الملايين، و صورت في سنوات قليلة جدا عددا ضخما من برامج الدين.

لم أقبل عقود الاحتكار، و بيع آخر برنامج رمضاني لي إلى ٣ فضائيات، وجنيت من ورائه الملايير.

كان البرنامج يحكي قصة النبي موسى مع بني إسرائيل، و دعوتهم إلى وحدانية الله، و على فكرة فان نجاح هذا البرنامج أو غيره من البرامج السابقة لا أعزوه الى سبب واحد بل إلى جملة من الأسباب: سرد القصة باسلوب بسيط و مشوق، إعتماد الدارجة، ربط أحداث الماضي بدروس الحاضر، و التركيز على التكرار المنهجي المقصود لأهم الأفكار و القيم المستفادة بهدف ترسيخها لدى المشاهد.

صحيح أن كثيرا من أهل الجنة فقراء، و لكن الغنى أيضا مهم جدا لخدمة الدعوة و إيصال فكرة إيجابية عن المسلم النموذجي : إنسان مرتاح ماديا و معنويا، ميسور الحال، قادر على العيش برفاهية و توفير ضروريات الحياة من مأكل و مشرب و ملبس و تعليم راق و جيد.

إن الرفاهية كلمة تخلب الألباب و تسحر الأفئدة...

و مع ذلك ردود الناس تختلف إزاءها فمنهم من يعتبر كثرتها مجلبة للكسل و الخمول، في حين يتحرق آخرون شوقا إلى المزيد من الرفاهية في العيش؛ سيارات فارهة، أجهزة تكييف في كل مكان، ترف في الطعام و أكل حد التخمة، نزهات و أسفار بلا حدود...

وعلى ذكر السفر، فان هذا أيضا ما اكسب برامجي نجاحا جماهيريا منقطع النظير، بمعنى أن البرنامج الواحد يتم تصويره في بلدان مختلفة مع التركيز على جمالية الديكورات و الآثار والمناظر الطبيعية من جبال و وديان و حدائق و غابات.

إن برنامج "موسى" مثلا صورته بين ورزازات بالمغرب و مصر و السودان و الأردن، والحق أني استمتعت بالسفر بين هذه البلدان و النزول دائما في فنادق فخمة استريح فيها من عناء التصوير و مشقة الساعات الطوال أمام الكاميرا، في السهوب و الصحاري و الفجاج العميقة. و أستطيع أن أجزم أن الجمهور نظرا لسذاجته الفطرية و ميله الغريزي إلى تمجيد الجمال و القوة و الإشعاع فانه يهوى أن يضع داعيته في خانة النجم التلفزيوني الأنيق المفوه البليغ الباعث للأمل و المولد لأحلام النجاح و المجد و الثراء.

نجاح و مجد و ثراء... أنا واحد من هؤلاء الدعاة...قبل أن اختار ذلك، الجمهور اختار. و على رأي الفنانين المصريين "الجمهور عايز كده".

دين و دعوة و دولارات...

مشرق الأنوار

كلنا نعلم أن طنجة تقع في أقصى شمال المغرب على مبعدة ١٤ كلم من إسبانيا، لكن من فينا طرح هذا السؤال على نفسه : أين تقع سيت، و ما علاقتها بطنجة ؟

و لعلمكم أيها الأعزاء فان سيت مدينة تقع جنوب فرنسا على الساحل المتوسطي غير بعيد عن مرسيليا. و باخرة "بلادي" المغربية تنطلق كل يوم من طنجة و على متنها مئات المسافرين نحو سيت في عبور بحري مدته ٣٦ ساعة متواصلة، و أحيانا تصل "بلادي" إلى الشواطئ الفرنسية متجاوزة بساعة أو ساعتين هذه المدة حسب سكون البحر او عدمه ،استقراره أو هيجانه.

صيف ٢٠٠٩...

ذاكرة مثقلة بالحنين، و الشغف بالترحال، و أجنحة النوارس، و عبير البحر...

على متن "بلادي" اشتغلت مروجا تجاريا لوسترن يونين... اشتغلت ٣ اسابيع و ربحت قدرا لا بأس به من المال ، ساعدني في أن اصمد لبضعة أشهر حتى أواصل بقوة مسيرة البحث عن عمل دائم.

كانت الباخرة هيكلا ضخما مكونا من ١٠ طوابق، و كانت كل مرة و هي تمخر العباب المصطفق بالأمواج ذات اليمين وذات اليسار أشبه بديناصور خرافي خرج لتوه من أعماق العصر الحجري...

و كان العمل في الباخرة موسميا بسيطا في أدائه لكنه منحني نصيبا من المتعة و الفرح الذي لا يضاهى. و أجمل ما كان فيه اللقاء المستمر بأفواج متجددة

من المسافرين، و متعة الذهاب و الإياب بين طنجة و سيت، بين بحر متلاطم الأمواج أحيانا، و آخر مسالم أحيانا أخرى، ناهيك عن المكوث يوما و نصف في البحر، و الرسو في اليابسة ٥ أو ٦ ساعات، اغتنم فيهن الفرصة للخروج من الباخرة، و النزول في أرض سيت لشراء بعض الحاجات من السوبرماركت، أو النزول ساعة الرجوع إلى المغرب في طنجة للتلذذ بأكل السمك المشوي في المرسى أو محادثة العائلة من المخدع الهاتفي للاطمئنان على الصحة و الأحوال.

ما الجدوى من تذكر كل ذلك الآن؟ و ماذا اجني من الإبحار في محيط الذكريات ؟

أين أنت يا سمير؟ هل تسمع صوتي و هو يناديك ؟ أجب، هل تسمعني ؟ رغم المسافة و عدم لقائنا منذ شهور مديدة، هل تحن مثلي إلى الزمن الجميل الذي مضى؟

أنا أذكر كل ساعة و كل دقيقة عشناها في الباخرة يا عبد الحق... أذكر كل لقطة كأن الأمس هو اليوم...

كيف لي أن أنسى ؟ كيف لي أن أنسى حضورك اللطيف و أحاديثك الفياضة بالود و نحن على متن الباخرة...

كنا رجلين تتلألأ عيناهما بنشوة المغامرة و الوجود البوهيمي هنا، على متن "بلادي"، كنا نورسين ينوء فؤادهما بحلم الرحيل...

الرحيل ؟

لماذا ؟ و إلى أين ؟

أن ترحل، يعني لك ذلك الكثير يا عبد الحق...

لقد شرحت لي أن مشروعك هو العودة إلى الوطن بعد ما يناهز ١١ سنة قضيتها في الضفة الأخرى و أنا أحييك، و أشد على يديك، و اتمنى لك

التوفيق و ادعو لك من أعماق قلبي الحنان المنان كي يجود عليك و يحقق لك مبتغاك...

لقد بات يخترقك شعور طاغ بالغربة في فرنسا، سيما و أن دراستك العليا انتهت و عملت بها ما شاء الله لك أن تعمل، و جبتها من اقصاها إلى أقصاها للسياحة و المؤتمرات و العمل، و صار حلمك أن ترحل من هنا و تقفل راجعا إلى الوطن، و كأي شاب يملك أحلاما كلاسيكية و معقولة صرت تحلم بإيجاد عمل، يعقبه زواج و استقرار و راحة بال...

و أن أرحل فمعناه أن اتسلل إلى أي بلد في الضفة الأخرى و انجح في المكوث به و لو كعامل نظافة، أن أهرب من بلد صار يتقيأ أبناءه و يلفظهم لحيتان البحر.

البحر هو المجهول يا صاحبي...

البحر هو العميق، الهادر، الهائج، المائج، الغدار، النكار، و مع ذلك فهو رزق البحار...

أنت تعلم أني موسيقي، أنا في الباخرة مثلك أعمل عملا موسميا، و لعلي سيء الطالع، لأن مشغلي لم ينقدني درهما واحدا منذ أن بدأت العمل هنا، أي منذ ٦ اشهر. ستقول لي لا ضرر في ذلك، و لكني سأجيبك فورا "بلى، فهذا يخالف اتفاقنا الذي يقضي بصرف أرباحي نهاية كل شهر أعمله في الباخرة".

إسمع يا عبد الحق، و على فكرة فأنا أحب اسمك لأنه يحيل إلى الحق الذي لن أقول لك غيره... اسمعني، منذ ٥ سنوات و أنا اقتات على الأعمال الموسمية بالمغرب، و اتعرض كل مرة للاحتقار و سوء المعاملة وجشع المشغلين واستغلالهم و عدم صرفهم لراتبي في كثير من الأحيان، إن افضلهم يمنحني ثلث الراتب أو نصفه...

أحلام و نهاية الأحلام

كرهت نفسي و البشر و الحياة... بت أحس بالقهر و الغبن و تمنيت مرات و مرات أن تنشق الأرض و تبتلعني حتى أهرب من دوامة الظلم، و إنه لتعتريني يا صاح رغبة مجنونة جامحة في الفرار و النجاة بجلدي من هذا البلد...

اني أحلم أن تطأ قدماي يوما وطنا به عدالة و كرامة و إنسانية، أين هذا الوطن ؟ و إن وجد فهل يموت فينا الوطن ؟

هل ترى ذهابنا و إيابنا طوال هذه المدة بين طنجة و سيت، فلا نحن نرسو هنا أو هناك، و لا نحن في فرنسا أو المغرب ؟ اني أشبه ما أكون بهذه الباخرة فليس لدي أدنى إحساس بالوطن...

تمزق و تشرد و انسلاخ و عدم انتماء...

و لم يا سمير ؟ لماذا تظلم الوطن؟ و لم كل هذا الحزن و اليأس ؟

انصرم صيف ٢٠٠٩ بلهيبه، و بحره، و أسفاره ، و مشهد أسراب الدلافين النطاطة في عرض المتوسط، و أيام رمضان السبعة عشر التي صمناها على متن الباخرة، و أحاديثنا الليلية اللانهائية في الطابق العاشر للباخرة تحت قبة السماء المرصعة بالآلئ، و على أنغام الريح البحرية الخالدة، و إيقاع الموسيقى الساحرة التي كانت تتدفق من كمانك الحزين الذي يطابق نفسيتك حد التماهي، و رائحة السردين المقلي على سفرة الإفطار،و سحائب الدخان المعطر الطائر منا و نحن نلثم بحنان ثغور النراجيل...

عسل و توت و تفاح و ندية بصفاء البحر في يوم ساكن..

انقضى صيف ٢٠٠٩ و تلاه خريف ٢٠١٠ و فوجئت ذات يوم و أنا اقرأ على الانترنت رسائلي الإلكترونية برسالة لطيفة منك تركت لي بين طياتها رقم جوالك على أمل التهاتف و اللقاء عما قريب.

و كان ذلك...

و التقينا في كازابلانكا و كعادتك كنت بحرا فياضا من الأحاسيس و كتلة ملتهبة من المشاعر و أنت تتحدث :

"هل تدري ما الذي حصل لي بعد أن انهيت عملك على الباخرة و عدت أدراجك إلى باريس؟ لقد تسللت إلى سيت سباحة بعد أن رميت بنفسي من على الباخرة إلى البحر، في غفلة من أعين حراس الحدود و طاقم الباخرة.

كان الارتماء عنيفا، فلم أعد أدري كم مترا غصت في الأعماق، و أين يميني من يساري و فوقي من تحتي، و رغم ذراعي المنكسرة جراء قوة الارتطام، سبحت مستميتا مقاتلا مجاهدا الموج الهادر، و الماء الفتاك البرودة، و مصيري المجهول.

و بمعجزة الهية و عناية ربانية بلغت الشاطئ، و وطئت قدماي تراب سيت. ها هي ذي فرنسا في قبضة اليد، رغم كل شيء... و في الحال ألقى علي حرس الحدود الفرنسيين القبض، و نقلوني بكل إنسانية و لطف إلى أقرب مستشفى حيث لبثت بضعة أيام طلبا لجبر ذراعي المكسورة.

و كنت معذبا بين الألم و الوحدة و الغربة و الأمل الدفين في العودة إلى الوطن. و تم شفائي سريعا، و عدت إلى مشرق الأنوار، و اصطبرت و رابطت شهورا سبعة بحثت فيها كالمجنون عن عمل، نهارا و ليلا، و ليلا و نهارا...

و أضاء لي نبراس الحظ، و وجدتني أعمل اليوم بدوام كامل كمسؤول تقني بإحدى شركات الحواسيب الشخصية.

قطران بلادي، يا عبد الحق، و لا عسل البلدان.

ما رأيك الآن في كل ما سمعت ؟؟؟ "

لم أحر جوابا، لقد فضلت الصمت ، و لم أنبس ببنت شفة...

عندما رأيت الثعلب

في خيال الطفل الصغير الذي كنته رأس الثعلب يشبه المثلث. و كلما جلست مع أبي في المقهى و شربت القازوزة في كأس محدبة من الأعلى رأيت الثعلب ينزلق مع السائل الذي أتلذذ باحتسائه. و أصيح في وجه أبي بفرح ممزوج بالدهشة

- أبي، اني أرى الثعلب.

:أقرب الكأس إليه و أضيف

- إنه ثعلب، هل رأيت الثعلب ؟

يدقق أبي النظر في الكأس المائلة القريبة إلى عينيه. يترجم وجهه الشك و الحيرة، يجيبني نافيا

- اني لم ار شيئا.

يغزوني الإحباط... لقد أبصرت الثعلب بأم عيني و حدقت فيه و أنعمت النظر في ذهابه و ايابه مع السائل الذي أشربه. و أبي لم ير شيئا ؟؟ يا للعجب. ليست هذه أول مرة ألفت فيها انتباهه الى حقيقة ما اكتشفت، بل هي المرة الألف، و لكن أبي لا يرى ثعلبا أو ذئبا أو قردا. !إنه لا يرى قسما محددا في نهاية الأمر. فيا للغرابة

أني و أبي صديقان حميمان. نجلس في المقهى مرة في الأسبوع على الأقل. يعاملني أبي معاملة الند للند. يطلب لي دائما مشروبا غازيا باردا و لنفسه قهوة سوداء. يدخن السيجارة تلو :الأخرى. انزعج من رائحة الدخان المتصاعد وأعاتب أبي قائلا

- متى يقلع عن التدخين؟ متى...متى ؟؟

:يرد علي متذمرا

-عندما يشاء الله.

: أواصل عتابي معاندا

- و متى يشاء الله ؟

:انفخ الهواء على جمرات السخط

- أوه، كفى، اسكت قليلا.

تيار الهواء بارد يكنس بلاط المقهى و يمسح الانزعاج الذي أحس به. أبي ما زال يدخن بشكل مسترسل، و الريح الخفيفة تحب حاملة دخان سجائره في السماء. أتنفس ملء رئتي و أعب الهواء النظيف. أحلم أن أصير رجلا كبيرا. أريد أن أصير طويلا مثل أبي قويا مثل أبي، و ذكيا مثله أيضا. بيننا تتناسل الأحاديث بسرعة و تطفو إلى السطح مواضيع للنقاش.

ننخرط في حديث موصول. أنا الطفل ذو السنوات الست لي رأي في كل موضوع يطرق. لست مغيبا أو مهمشا. اني أشعر حقا بالسعادة. أبي يدمجني في حديثه الثري. يقص علي ببراعة سارد محترف ذكريات و مغامرات من طفولته، فينفغر لها فمي من الدهشة.

- كنت طفلا عاشقا للمغامرة، صحبة رفقائي أصطاد الطيور في الغابة، أسبح في الوديان دون الخوف من الغرق، أمشي المسافات الطويلة على قدمي و اكتشف دوما الأماكن المجهولة...

:يغريني مشهد صيد الطيور فأقاطعه بلهفة

- و ماذا كنت تفعل بالطيور بعد اصطيادها ؟

:وجه أبي البسيط المعبر يشرق منه الضحك

- اذبحها و اشويها على الحطب.

- و هل تأكلها ؟

- نعم أيها الفيلسوف و لا اتركها أبدا.

و نغرق نحن الاثنين في الضحك.

متى أغدو رجلا كبيرا ؟ متى ينمو لي شارب و لحية أحلقهما بانتظام كل صباح مثلما يفعل أبي ؟ أريد أن أسبق الزمن...

الكبار محظوظون، فكلامهم مسموع و جانبهم مرهوب. أبي مثلا يحقق غالبا ما يريده بكل سهولة و دون كبير عناء...

عشية البارحة رأيت لاعبي كرة القدم في منتهى الصغر على شاشة التلفزيون. رأيتهم يتقاذفون الكرة و يسجلون الأهداف. كيف أمكن لهم بأجسامهم الكبيرة أن ينحشروا داخل التلفزيون و يلعبوا مقابلة رياضية ؟

لقد استغربت كثيرا، و حاولت أن أنظر اليهم من خلال الفتحات العابرة لظهر التلفزيون، فلم ار شيئا. وثب الى بصري فقط منظر الأسلاك و الرقائق المعدنية. بت الليل ساهرا أشكو من الأرق : انها مسألة عسيرة الفهم.

الكبار ليسوا مثل الصغار. بين الفريقين اختلاف جذري. أعتقد أن أبي و أمي ولدا كبيرين و لم يعرفا بتاتا مرحلة الطفولة. أظن انهما نزلا من السماء في ثياب فاخرة براقة الألوان، و على وجهيهما كانت تلوح علامات الانشراح و السعادة. نزلا من السماء إلى الأرض زوجين متكاملين متفاهمين، لا أحد منهما يستطيع الاستغناء عن الآخر. اسماهما لم يتغيرا قط منذ بدء حياتهما على وجه الأرض : محمد و فاطمة.

ربما كانا يحملان في طفولة بعيدة، أشك أصلا انهما مرا بها اسمين مختلفين : خالد وخديجة، أو صالح و نفيسة... المهم انهما والداي في جميع الأحوال، و قد رزقا بي بمشيئة الله وحده.

أما جدي فهو ينتمي أيضا لعالم الكبار. لكنه قد غرس في هذا العالم جذوره منذ زمن سحيق فصار لديه مألوفا جدا. جدي أكبر من الكبار العاديين. إنه

أحلام و نهاية الأحلام

أكبر سنا من أبي و أمي وخالي وعمي و لست أدري من فالقائمة طويلة لا تنتهي.

و لذا فكلما زارنا في البيت كل يوم جمعة، وحمل لي كعادته كمشة من الفول السوداني و الحلوى ثم نفحني بعض الدريهمات، كنت أسرح ببصري في وجهه المتغضن و أشعر بالهيبة، و ينتصب أمامي، أنا الطفل الصغير الضئيل بقامته الفارعة و جسمه العريض و قدميه الواسعتين، فأخالني في محضر كائن خرافي أو أسطورة من أعماق التاريخ... جدي إذن يبلور في داخلي هذه الأحاسيس التي تقوى كلما لثمت بخشوع يده الضخمة أو كنت شاهدا على نوبات العصبية التي تجتاحه بين حين وآخر لأتفه الأسباب.

!يا إلهي اني أعول على قدرتك العجيبة كي أكبر بسرعة

!يا إلهي، حقق حلمي

بين يوم و ليلة، أغمض جفني، و أفتحهما في الصباح فأكتشف أني أصبحت رجلا كبيرا. ليس مثل جدي لأنه مخيف أحيانا، بل مثل أبي لأنه بارع دائما.

داخل البيت أو خارجه يوصيني أبي أن اتحلى بأخلاق الرجولة، أن أكون صادقا و شجاعا و كريما. أعارك أختي الصغرى، اكيل لها بعض الصفعات، تخرمش وجهي، أجرها من شعرها القصير جرا عنيفا، تصرخ و تصيح. ترفع عقيرتها بالبكاء. يحمى وطيس المعركة، ونلتحم في كرة بشرية تنط في ارجاء البيت.

مسرعة، تتدخل أمي لإنهاء العدوان، و يزمجر أبي في وجهي قائلا :

!- كفى يا ملعون. كن رجلا و لا تضرب أختك الصغيرة

في المطبخ أعبث بالأواني، اصنع أشكالا هندسية درسها لنا المعلم في القسم. أرص الأطباق و الكؤوس رصا منظما. أشكل مربعا، مستطيلا، دائرة. كم هو صعب تشكيل هرم لكني سأحاول. واحد، اثنان، ثلاثة. فشلت. حاول مرة

ثانيــة، هيــا... فشــلت... و ثالثــة، و رابعــة... يهــوي البنــاء إلــى الأرض محــدثا ضجة قوية.

ماذا أفعل؟ ! يا إلهي لقد كسرت الأواني

قبل أن أهرب من المطبخ، اتلقى من أمي صفعة مدوية :

! - خذ يا حمار

يأتيني من غرفة الأكل صوت أبي الغاضب:

- تعال الى هنا.

خائفا، ارسم خطوات متعثرة:

- لقد انكسرت الأواني وحدها... الريح هي السبب... شباك المطبخ مفتوح...

لهجة التأنيب واضحة في كلام أبي :

- كفى كذبا و كن صادقا، كن رجلا !

!نعم، يجب أن أكون رجلا

الشـمس تكـب علـى رأسـي قنطـارا مـن الحمـم. الهـواء محتـبس، لا نسـمة ترطـب الجـو. الاختنــاق. أصــحابي يتقــاذفون الكــرة عــازمين علــى تسـجيل هـدف الفـوز. منـذ دقـائق عديـدة لـم تمـس قـدمي الكـرة. العيـاء بـدأ يشـق طريقـه إلـي يجـب أن اصمد. ثمة هفوة في دفاع الخصم. استجمع همتي الباقية و انطلق كالسهم.

اسـتقبل الكـرة مـن أصـحابي. أراوغ الخصـوم الواحـد تلـو الآخـر. ينتـزع فيصـل الكرة مـن بـين قدمي. إنـه أقـوى منـي بنيـة وأطـول قامـة لكنـه لا ينتمـي لعـالم الكبـار فشـاربه لـم ينبـت بعـد، و إن كـان صـوته بـدأ يخشـن و يقـبح. لـن تغلبنـي يـا فيصـل. سأريك من أنا. سأكون بلا شك بطل !المقابلة

أجاهـد فـي الميـدان. انـدمج مـع غريمـي فـي منافسـة عنيـدة. جسـمي الصـغير لـن يـؤمن لـي الظفـر. علـي باسـتعمال الحيلـة. فيصـل يضـربني بمرفقـه الحـاد فـي الصـدر. امـتص الصـدمة. أتظـاهر أنـي دخـت. أنـزل إلـى الأرض منهـارا متهالكـا.

أحلام و نهاية الأحلام

أحبس أنفاسي لحظة، فيشفق الخصم علي و يتوقف عن اللعب. واحد، اثنان، ثلاثة. أقفز على الكرة بسرعة الخذروف، و أطير إلى شباك المرمى حيث اسجل هدف الفوز.

- أحسنت، برافو !

يهرع أصحابي الي. يتعاونون على حملي، أصعد و أنزل من السماء و في عيون أصحابي فرحة النصر.

- هكذا يكون الرجال !

ينطقها أبي بلهجة احتفالية بعدما أخبره بنجوميتي في المباراة.

القفة ثقيلة جدا و أنا لا أقوى على حملها. انها مليئة بالخضر و الفواكه، و لأبي فقط القدرة على رفع الأشياء الثقيلة. هذا صباح يوم الجمعة. الشمس تتألق في السماء. الحر شديد يكتم الأنفاس. الصيف يعلن عن نفسه باكرا هذا العام.

الطريق المؤدي إلى السوق الاسبوعي "المسيرة"، و الذي أعبره مع أبي يدا في يد، يكسوه الغبار. ضجيج المتسوقين و لغطهم يزيدان من شدة القيظ. في عيني الطفل الصغير الذي كنته العبور شاق و المسافة طويلة لا منتهية.

تحت أشعة الشمس الحارقة ينغلق جفناي على رغمهما، لكني ارى رغم ذلك قطرات من العرق تعلق فوق جبين أبي. مبهورا، أحدق في أبي يمشي بخطوات هادئة والصمت يسربل كيانه، كما لو أن الحرارة الجهنمية لا تنقض عليه، ولا تعرقل مشيه المنتظم... كما لو أن جسم أبي منيع لا يؤثر فيه أي شيء.

نحن الآن في قلب السوق. الجو ما زال ساخنا. بلا كلل، يساوم أبي الباعة. تمتلئ القفة شيئا فشيئا بالأغذية، و تثقل. حلقي جاف. لكي أروي عطشي اشرب ماء باردا من قارورة يضعها بن عيسى بين يدي. بن عيسى ليس الاسم

الحقيقي لبائع الجزر و لكنه مجرد لقب يتفكه أبي بإطلاقه عليه. كلما سمعت هذا اللقب، أتذكر السوق و العطش والماء البارد.

في طريق العودة، أغذي الأمل بالوصول سريعا إلى البيت. أمشي بفرح، وجهي مرفوع إلى الشمس، خطواتي حثيثة. بن فينة وأخرى يرميني أبي بنظرة باسما. قبل أن نركب الحافلة، يبتاع لي قطعا مدورة من الحلوى يسميها بغرابة "بيض الحمام".

في المساء، نبرمج للذهاب إلى المقهى. العام الدراسي قد انتهى منذ أيام قليلة. و أبي كما وعدني سيشتري لي حذاء جديدا. نجول في المدينة العتيقة. نسير في الدروب الملتوية بين صعود وهبوط. أكتاف المرة تتلاحم وسط الزحام. العرق يفيض من الكتل البشرية و هي تموج في دفعات متلاحقة.

تعلو في السماء بين لحظة وأخرى شتائم و أصوات غاضبة تعلن عن ارتطام شخصين أو معاكسة شاب لفتاة مثيرة. الحر لا يخف رغم الأصيل. والسعي متواصل رغم فواصل المضايقة والشتائم.

!أريد حذاء أسود قاسيا مثل حذاء أبي

!أريد حذاء أنيقا للسهرة عندما ألبسه أكون جذابا مثل الكبار

نصل إلى حانوت الأحذية. ينتقي لي أبي حذاء بنيا من الجلد. أقيسه و أرفضه. يقترح علي حذاء آخر، لكنه أيضا لا يعجبني. أقيسه ثم أرفض مرة ثانية. ينزعج أبي و ينهرني على سلوكي الصبياني. أتظاهر باللامبالاة. انكمش على نفسي و أغلق كل النوافذ. تطير عيناي إلى اركان و رفوف الحانوت، ابحث عن الحذاء الذي نقشته في ذاكرتي.

بعد ثوان معدودة، أعثر على ضالتي. أتوسل لأبي كي يبتاع لي الحذاء الأسود. رغم الرفض من جانبه، ألح و أتمسك باختياري. بعد لأي يذعن أبي

و يشتري لي على مضض الحذاء. نمضي معا إلى المقهى و قلبي يرقص فرحا.

في الطريق إلى المقهى، أحس بالإبر الحادة تخز قدمي. أمشي ساكتا بلا شكوى. اتحمل وخز الإبر. ما يزال أمامنا شوط طويل قبل أن نصل إلى المقهى.

لم أعد أستطيع أن اتحمل أكثر :

- أبي، لقد انسلخ جلد قدمي من المشي.

يجيبني أبي ببساطة تنطوي على التأنيب:

- هذا لأن الحذاء من الجلد القاسي، هذا لأنك لا تسمع كلامي.

أشعر بالألم و لا أقدر على الصبر أكثر مما صبرت.

- أبي، لنتوقف قليلا عن المشي. قدماي تتألمان كثيرا.

يبتاع لي أبي من صيدلية قريبة لفافة من القطن و قطعة من الشاش. يسعف قدمي الجريحتين. نستأنف السير. لكن أشعر دائما بالألم.

في المقهى، نجلس في الركن الذي درجنا على لزومه. يطلب أبي لي قازوزة باردة و لنفسه قهوة سوداء. يدخن سجائره تباعا. أتناسى الألم و احتسي القازوزة من الكأس المحدبة.

أشعر بالانتعاش. أقرب الكأس إلى وجه أبي، وأسأله كالمعتاد:

- هل رأيت الثعلب ؟

لم يحتج أبي دقيقة واحدة للتفكير. لم يعكس وجهه أي تعبير، بل ظل محايدا خاليا من المعنى و هو يجيبني ببساطة:

- لم أر شيئا.

لن أعيش في جلباب أمي

أنا حزينة جدا، أمي لا تفهمني، أبي لا يفهمني، لا أحد في الدنيا يفهمني...

في أوقات كثيرة أنسل من البيت هاربة. تعترض أمي سبيلي قائلة :

- إلى أين أنت ذاهبة ؟

فأجيبها على الفور :

- إلى المعهد الثانوي.

ألمح في عينيها نظرات الشك و التأنيب، فأحلف بالله كاذبة أني ذاهبة للدراسة. تتركني أمي و تتوجه إلى المطبخ و هي تدمدم، فأنصرف سريعا وفي قلبي فرحة النصر. ما أن ابتعد عن البيت حتى أتنفس الصعداء.

أنا حرة... يمكن لي أن أفعل ما يحلو لي بعيدا عن كل رقيب...

التقي بزميلاتي عند باب المعهد. نتبادل السلام و الضحكات. نسخر أيضا من الأساتذة. في الأوقات الحقيقية للدراسة، يحدث أن نتغيب عن بعض الحصص دون أدنى شعور بالندم. منذ أسبوع مضى حصلت على علامة سيئة جدا في الفرنسية : غير مهم، لا يمنعني ذلك من النوم ليلا بسلام.

الليل ! عالم مثير و غامض...

في بيتنا الليل طويل وصاخب و مضجر في بعض المرات. ينتهي عمل أبي كل يوم على الساعة السابعة مساء. يرجع إلى البيت و يتناول ما تيسر من الطعام، ثم يبدأ سهرته التاريخية. يشعل التلفاز مضخما الصوت إلى أقصى حد. يتجول بين القنوات الفضائية دونما تركيز على برنامج معين. أحسه يلعب مقابلة كرة قدم من غير أن يسجل هدفا واحدا.

أحلام و نهاية الأحلام

أنا جالسة في الغرفة الملاصقة للصالون حيث أبي غاطس في بحر متلاطم من المشاهد و الصور. يرتطم صوت التلفاز العالي بصوت أذني و أنا أحاول محاولة اليائس أن أراجع درسا في العربية. لا فائدة من تكرار المحاولة. افقد التركيز...

أفكر أن أكلم أبي واطلب منه بلطف أن يخفض من الصوت، لكني اتراجع في الحال حين أتذكر ما حدث لي في المرة السابقة عندما انهال علي شتما وتقريعا بصوته المبحوح الخشن من أثر التدخين :

- دعيني أشاهد الأخبار أيتها الملعونة !

أمس كان يوم الجمعة. انه يوم لا يغير شيئا في عادات أبي، فأيامه كلها "كيف كيف" في ضجيجها و صخبها. بعد وجبة العشاء، حل ببيتنا مصطفى، صديق أبي. انه يعمل معه في المصنع منذ سنوات طويلة. بعد السلام و الترحيب، انعزل الاثنان في الصالون و غطسا في شرب الروج. بعد برهة، لعبت نشوة الخمر بالرؤوس، فتعالى في جو البيت سيل من الضحك، اعقبه سيل من السباب الفاحش. حاولت أمي التدخل، طلبت من أبي أن يثوب إلى رشده، نصحته بالكف عن الشرب، لكنه تمادى و ختم أذنيه بالشمع الأحمر، و استرسل في موجة من الهذيان.

أشعر بالاختناق... مزاجي اليوم متعكر. الحزن الجاثم على صدري أصبح ثقيلا كالرصاص.

هل إلى الخلاص من سبيل ؟

أطلع إلى سطح البيت. أجلس فوف البلاط متكئة على السور، مرسلة بصري بعيدا. في السماء نجمة يتيمة و نخلة تلتحم بالفضاء في عناق رومانسي يأسر الألباب. أنا وحيدة مثل هذه النجمة، و لا أحد يفهمني...

في بيتنا، الحياة لا تطاق ومجرد التفكير في علاقتي بأبوي يلف قلبي بغلالة سميكة من الكآبة. نعم.. حياتنا في البيت مزروعة بالتوتر و الغل و الكره. لون أسود قاتم يصبغ سحنتها، و في جوفها طعم حاد للمرارة. لا أذكر أني مرة تصادقت مع أمي، لا أذكر أنه كان ثمة بوح و اعتراف و ندية صافية. لم نتهامس يوما بكلام النساء المفعم بالاسرار. لم نقترب بشكل كاف من بعضنا البعض. كانت العلاقة بيننا دوما سطحية جافة، و بلا معنى...

أمي، والحق أقول، بارعة جدا في إصدار الأوامر و فرض السيطرة علي في كل المواقف. لا تصغي إلي، تخاطبني بعصبية، توبخني لأقل خطأ ارتكبه. أ و لم تخطئ هي حين كانت صغيرة ؟؟ بيننا نحن الاثنتين جدار من الصمت و سوء الفهم.

في يوم الخميس الماضي، أتيت إلى البيت متأخرة. كانت الساعة تقترب من التاسعة مساء. كنت اتسلى مع صديقتي نوال بعيدا عن هذا البيت المقرف الممل. بمجرد أن وطئت قدماي باب البيت، تلقيت من أمي وابلا عنيفا من الشتائم، تلاه سيل عرم من الضرب تراوح بين :لطم ولكم فوضوي في كل أجزاء الجسم، فرفعت عقيرتي بالصياح و التوسل المزوج بالبكاء

- أرجوك يا أمي، سامحيني هذه المرة، سامحيني...أرجوك...

وكان الرد مزيدا من الضرب من جهتها، و العويل من جانبي.

و توقف المشهد عندما خارت قوى أمي...

و ازدادت صلابة الجدار المنتصب بيننا نحن الاثنتين.

العنف في بيتنا هو الوسيلة الأولى للتواصل. أمي تلجأ دائما الى العنف : عندما تغلق باب الثلاجة تسمع في البيت فرقعة قوية مزعجة. عندما تحتاج لمعونتي في إنجاز بعض الأشغال المنزلية، تناديني بصوت عال يصم الآذان. الكنس و الغسل و المسح حركات تمارسها بمنتهى الضجة و العنف.

سمعت ذات يوم خالتي مريم تقول إن أمي عصبية المزاج، عنيفة الطبع، لأنها لم تكمل دراستها و اجبرتها الظروف على أن تتزوج أبي و تقبع في البيت. الزواج من أبي كان ضرورة فقط و لم يكن حدث سعيدا لأنه حصرها في دائرة الفقر.

أبي عنيف أيضا، و عنفه له طقوسه الخاصة...

يمزح أبي مع أخي علي مزاحا قوامه قرصات لاذعة في الخدود، و صفعات على القفا، و أحيانا ركلات في المؤخرة، و يغرق الاثنان في الضحك... يطلب من أمي أن تسرع بتحضير العشاء بصوت جهوري طنان. يصدر فحيحا ثعبانيا عند احتسائه للشربة وقت العشاء. و غالبا ما تتحول مشاهدته اليومية للتلفاز إلى مهرجان لموسيقى الميتاليكا الصاخبة. و حينما ينتهي أبي من تدخين سيجارته المنزوعة العقب، يسحقها أينما اتفق، وينطلق من صدره سعال قوي لمدخن عتيق. و بما أن المحدد الوراثي يقضي بأن يكون الابن على صورة والديه، فإن أخي علي هو أيضا طفل عنيف.

في حوش البيت أو الشارع يلعب الكرة. يسقط على الأرض، يقوم لتوه من عثرته، و يواصل اللعب بملابسه المتسخة. يكيل للكرة ركلات مجنونة مقتبلة، فتسافر في السماء. يجري خلفها بأقصى سرعة، إلى أن تهوي من جديد في بر الأمان. و يعاود الكرة مرة ثانية، و ثالثة... و كثيرا ما يعود من معاركه اليومية أشعث أغبر، رث الهيئة. و كم من مرة عاد إلينا شاكيا باكيا و خيوط الدم تسيل من أنفه أو فمه...

الحزن يحبسني كالشرنقة، و ظلاله تغمق و تكثف في فؤادي، فأخرج من البيت مهرولة.

الى أين أمضي ؟ أين أجد شاطئ النجاة، أنا التي أحمل حزني كالنعش فوق كتفي، و انوء بالهم اليومي ؟

أحلام و نهاية الأحلام

الساعة تشير الآن إلى الثالثة و النصف، و الحر يتموج في الهواء كالوهم. قرص الشمس يشتعل في كبد السماء. الشارع شبه خال من المارة. الناس مستسلمون لقيلولة طويلة...

في الحديقة، يخف الحر، و في ظل الأشجار الظليل أجلس. استرخي من عناء السير تحت لفح الشمس و افرد ساقي. أفرغ رأسي من الهموم، و اسمح للزمن بالهرولة في هذه الواحة المزروعة في قلب الحر. المكان يوحي بالسكينة...

شفتاي أصبغهما بأحمر الشفاه...أنظر لوجهي في المرآة... لقد اكتسب ألقا و جاذبية مما منحني مزيدا من الثقة في النفس و قدرة مضاعفة على الإغراء. الوقت يمر بسرعة... رفعت بصري إلى الأعلى فتناهى إلي مشهد السماء المضمخة بحمرة الغروب و المنقوشة بقطن شديد النعومة.

نعم... لقد حث الزمن خطاه ، فوجدتني شاهدة على غروب زاده سحرا هبوب نسمات باردة أنعشتني و ساعدتني على التركيز.

طفل صغير في عمر الزهور يلاعب أباه. الفرح ينط من وجهه البريء. الأب يمسك الطفل بين يديه، يدغدغه و يهزهزه بانتظام، فتند عن فمه الوردي ضحكات جذلانة مسترسلة. إنه لا يقذف به في الفضاء كما يفعل أخي علي بالكرة، و لكنه يلاعبه برفق. تدوم اللقطة لحظات أروع من الأبدية، و يصبح الطفل بشعره الأحرش و بشرته السمراء الممتلئة بالحيوية نجمة مضيئة يرودها الأب بين يديه.

هل لعبت معي أمي بنفس الطريقة عندما كنت صبية ؟؟

الحياة في البيت لا تطاق، و مجرد التفكير في صلتي بأمي يصيبني بالحزن. لا أجد في الدنيا أذنا صاغية لي. أراوغ الزمن، و رغم كل شيء أحفظ بين يدي قبضة من الفرح. اني أسرق من الحياة في هذه الحديقة الغارقة في الطمأنينة، لحظات... مجرد لحظات من الصفاء الذهني و راحة البال. غير

بعيد عني، اللعب القائم بين الأب و صغيره يعود بي القهقرى إلى طفولتي المبكرة. هناك، ترتسم صور غائمة لذكريات بعيدة ذاب جلها في بحر النسيان.

الطريق إلى البيت يكاد يكون غارقا في الظلام لولا الضوء الشحيح المنبعث من أعمدة النور. النسمات الباردة ما زالت تهب. الجو لطيف جدا. ما زلت رائقة المزاج. صورة الطفل و هو يلاعب أباه أضحت تسكن فكري. إنها تتسلط عليه بعنف فتذيب كل الصور.

ترتسم على شفتي بسمة سعيدة، أتابع سيري الحثيث إلى البيت غير مبالية بجرعة التوتر التي تنتظرني هناك. تعترض سبيلي صديقتي نوال. تسلم علي بحرارة، و تدعوني لمرافقتها قليلا. أرفض بلطف و أواصل المشي.

هل المسافة أصبحت طويلة أم أني أتخيل فقط ؟ هل الزمن توقف عن السير أم أن حواسي انغمست في حلم عجيب ؟

الأشياء من حولي جامدة، و لكني أراها تتحرك. أرى الأشجار تمتد و تتباعد مكتسبة معاني جديدة. الظلال الباهتة على يميني و يساري تنطق بألف كلام. القمر شلال من النور المنهمر. انه يهمس في أذني غناء خافتا كالخرير.

اتحرك بهمة عالية. نشاط غريب يخفق بن جوانحي. جلستي في الحديقة أبهجتني و قبضة الفرح التي حفظتها بين يدي عدلت مزاجي. لا أستطيع أن أتكهن كم الساعة الآن، غير أن إحساسا قويا يقول لي أن الوقت قد حان للرجوع إلى البيت. !فلأعد إلى البيت

رحيل

جلس ساعة المغيب فوق الرمال الباردة، و أرسل ناظره بعيدا حيث خط الأفق يقطع صفحة الماء، و أخذ يتأمل المنظر طويلا، فخامره إحساس قوي بالارتياح. حول بصره إلى ضفة الشاطئ فرأى الأمواج تتهادى في سكينة محملة بالزبد. أطرق حزينا مغموما، ودفن وجهه في كلتا راحتيه. فقد زمام السيطرة على مشاعره فتلألأت في عينيه دمعتان و سرعان ما أجهش بالبكاء.

سقط نبأ وفاة والده على قلبه كالصاعقة، فظل فاغرا فاه من شدة الذهول. و في لحظة لا تنسى أحس أن جسمه كاملا يتشظى في الفراغ. هل يمكن تصديق ما حدث ؟ لقد شيع مع جماعات الرجال والنساء نعش الراحل إلى مثواه الأخير. و هذه أكوام التراب تنهال على الفقيد و هو مكفن في جوف القبر...

رباه ! انها مأساة كبرى ! أ معقول ما حصل ؟ رحل الأب و السند و الصديق. تعثر فجأة في السجاد و هو قائم يحث الخطى لصلاة الفجر. لقد تلقى صدمة عنيفة في الرأس نقلته من عالم الأحياء إلى مملكة الأموات. داهمه شبح الموت و اقتنص منه الحياة. فاللهم لا اعتراض !

قطع حبل هواجسه و كف عن البكاء، ثم كفكف دموعه، و انتصب واقفا مثقل الرأس بالهم...

الدنيا تجثم ثقيلة فوق صدره، الحزن يعتصر قلبه...

واصل السير مهدم الخطوات و سحب من قلب كسير تنهدة حارة. أحس بالتعب يتغلغل إلى كل جزء من جسده، فتضاعف يأسه، و تملكته رغبة جامحة في الارتماء على الأرض و افتراش الرمل. غاص المكان في ظلمة

الليل، فأحس بغربة قاتلة تجتاح قلبه، و خيل إليه في لحظة خاطفة أنه وحيد في هذا العالم.

كانت الريح تكنس الشارع، و لا تنبعث من المصابيح المصطفة على طول كل رصيف سوى خيوط ضعيفة من النور. وقف أمام باب البيت و وقع على سطحه نقرات خفيفة، و انفتح الباب عن وجه عابس مجهد فاتر الملامح.

كان الله في عون هذه الأم! من سيدة متزوجة مصونة إلى أرملة مهيضة الجناح.

و جلسا جنبا إلى جنب فوق فراش متهرئ و قد خيم السكون على البيت. ظلا طويلا معتصمين بالصمت و كلاهما ينتظر من الآخر أن ينطق و لو بكلمة واحدة. و مرت ساعة، و ساعتان، و كلاهما لم ينبس ببنت شفة.

و أخيرا تكلمت الأم :

- أين كنت طوال اليوم يا إدريس ؟

أجاب الابن بهدوء :

- كنت في الشاطئ.

انزعجت الأم و تصلبت قسمات وجهها:

- ألا ترى أن الوقت غير مناسب...

- لا أطيق البقاء هنا ؟

- لماذا ؟

- ليس هناك ما أفعله.

و لم تعد الأم بقادرة على التحكم في أعصابها، و صاحت :

- ما كان يجدر بك مغادرة البيت على الإطلاق. نحن نجتاز ظرفا صعبا، ألا تريد أن تقف بجانبي؟

لم يحر جوابا. أطرق الابن حزينا و الندم يعصف بكيانه.

أحلام و نهاية الأحلام

- هل أسخن لك طعام العشاء؟

- لا رغبة لدي في الأكل.

- و هل تبيت دون أكل ؟

- لست جائعا.

انتصف الليل فجر إدريس قدميه في تباطؤ لغرفة النوم. حاول جاهدا أن ينام و لكن لم يغمض له جفن. لقد عاش ١٨ عاما في كنف أب عطوف. لطالما سقط في أحضانه الدافئة مقبلا أو مودعا. الصداقة بينهما كانت تقوم مقام روابط الدم. كان الراحل أذنا صاغية و انسانا متفهما، و الآن يشعر أنه في قمة الفقر. ما الفقر إن لم يكن فقدان الدفء و الحب ؟ هل للحياة معنى بدون حب ؟

أمسك عن الفكر حين تسلل إليه من الغرفة المجاورة ضوء شاحب. ها هي ذي أمه بدورها تعاني الأرق.

-هوني عليك يا أماه !

- ليتني أستطيع يا بني...

- أنا مثلك تماما، منذ أن أويت إلى فراشي و النوم يهجر جفني.

- عادي جدا... اللهم ألهمنا الصبر و السلوان...

و اعتصمت الأم بالصمت. و طال بها التفكير، ثم قالت في النهاية :

- غدا صباحا سنرحل !

- نرحل؟؟!!

- أجل يا بني...

- إلى أين نرحل؟

صباح اليوم الموالي، في القطار، كان الابن جالسا جنب الأم في مقصورة نصف ممتلئة بالمسافرين. و رمى المدينة بنظرة كلها حزن و ألم و وداع و لسان حاله يقول:" كيف يكون المستقبل ؟ وأي قدر جديد ينتظرنا هناك؟ ".

دار الحق

كانت آخر مرة رأيت فيها سعيد قبل شتاء هذا العام تعود إلى ٦ شهور أي منتصف يونيو من عام ١٩٩٨ ، و منذ نهاية ديسمبر العام نفسه استحال علي أن التقي بسعيد، و لم أجد له أثرا في أي مكان، فهل لأنه انتقل إلى مملكة الأموات ؟؟!!

و لم أكن أعلم و سعيد يخط بيمينه هذه الأسطر أنه بين الحياة و الممات أحيانا شبر أو أقل، و أن أخي الأصغر سيكمل اليوم ما بدأته بالأمس، و أن سلام الروح يكمن في عودتها إلى بارئها، و أن الحياة استحقت أن تكون دنيا لأنها في أحايين كثيرة يؤدي التمسك بها إلى المكوث في أسفل سافلين.

لم كل هذا التشاؤم ؟ لم كل هذي السوداوية ؟ هل أنا حي؟ هل أنا ميت ؟ هل أسمع صوت الرصاص أم أني أتخيل ؟ هل يراد قتلي أم أن سعيدا هو المستهدف ؟ و لم لا نكون معا هدفا مزدوجا لقاتل واحد ؟ ما الحد بين الوهم و الواقع ؟ ما الفيصل بين الحقيقة و الخيال ؟

اسمي العربي، ٣٢ سنة، منذ طفولتي و أنا أسكن بالعرائش، أذكر ذاك جيدا . و لكن أين أنا ؟ ما لهذا المكان مظلما موحشا مقفرا، و ما لي فيه وحيدا شريدا ؟ أين أنا ؟ ميت أنا أم حي ؟ يا إلهي ! أين أنا ؟

قطعت شارع محمد الخامس و يداي مدسوستان في جيبي، بصري عند مستوى الأفق. ملامحي ترسم كل اللامبالاة. كانت السماء فوقي قطعة قماش محدبة، ينتهي طرفها عند أبعد نقطة. أشجار النخيل حولي تنتظم في ألفة و تناسق. بدأت اقترب من البحر. القرص الساحر الأحمر على أهبة الغوص في مياهه الزرقاء.

حولت مسيري في هذه اللحظة، لأتوغل في شبكة من الدروب و المسالك الضيقة. تبينت بحاستي السادسة أنها ستمطر، فأسرعت على غير المعتاد. سرت بمحاذاة الأسوار التاريخية للمدينة القديمة، أخيرا وصلت. تنهدت بصوت مسموع. طرقت الباب فانفتح عن أمي و على شفتيها ظل ابتسامة. هويت برأسي أقبل يدها، فناولتني إياها بامتنان.

دلفت إلى الداخل، جلست فوق فراش متهرئ، خلعت حذائي، تربعت و أسندت رأسي إلى الجدار. تنفست بعمق. التعب يتغلغل إلى كل جزء من جسدي فيزيد مفاصلي المفككة تفككا. معه تتملكني رغبة جامحة في الارتماء على الأرض و افتراش الحصير.

أطبقت كتل الظلام على البيت، أشعلت الأنوار في الحين، تفحصت للمرة الألف قطع الأثاث المهملة. مسحت حجرات البيت بنظرات مسكينة : حجرة استقبال ضيقة و مستطيلة تتفرع عنها غرفة نوم و مطبخ بمساحة أضيق. هنا تتجلى القسوة في أوضح صورها. في السقف تعشش العناكب، و على الجدران تسكن البقع. كل شيء هنا ينطق بالكآبة و الصمت و البؤس.

فكرت في فتح إحدى النوافذ تجديدا للهواء الفاسد، لكن تراجعت إذ تناهى إلى أذني صوت العاصفة : الريح تعوي في شكوى متصلة، و الأمطار تجلد الأزقة بوحشية لا مثيل لها. دعتني أمي للعشاء فاعتذرت بأن لا شهية لي للأكل. كنت أعلم مسبقا أنه ثمة خبز و زيتون و براد شاي. عشاء كل يوم، طعام مألوف حد السأم.

في الصيف الماضي، حدثت ببيتنا أشياء كثيرة : تزوجت أختاي كريمة و عائشة في ليلة واحدة، أسعفهما الحظ في اقتناص زوجين على قدر لا بأس به من الثراء.كريمة لم ترغب في إتمام دراستها العليا، فرضيت بالزواج بعد

٣ شهور فقط من خطوبتها. عزمت بقرار لا رجعه فيه على أن تتفرغ لشؤون زوجها و بيتها.

بدت لي ليلة الزفاف نجمة متألقة، ترقص بجرأة و توزع القبل ذات اليمين و ذات الشمال و هي في درجة من النشوة عالية. أما عائشة أختي العزيزة، فقد انعقد قرانها في لمح البصر، غير أنها اشترطت على زوجها الوقوف إلى جانبها لإكمال دراستها الجامعية، فوافق الرجل الطيب على الفور.

بقي أخي سعيد. يا له من مجنون ! لم يحضر زفاف كريمة و عائشة، و خلف وراءه عيونا كلها استفهام و وجوها كلها استغراب. بحثنا عنه في كل مكان نعرفه و في بعض الأماكن المجهولة. أين هو ؟ لا أثر له. بلا جدوى.

انقطعت عنا أخباره لما ينيف عن ٦ شهور، و علمنا بعد حين، من بطاقة بريدية توصلنا بها، أنه تسلل كمهاجر سري لإسبانيا، و أنه بعد جهد جهيد نجح في الحصول على عمل موسمي يقتات به انتظارا لما هو أفضل.

آه من الذكريات و سلطان الماضي حين تنثال صوره على الخاطر فيخاله المرء سيولا جرافة. آه من أمس مضى و لم يعد.

أويت إلى فراشي و انكمشت تحت غطاء سميك يحميني من زمهرير ديسمبر، و ما أدراك ما زمهرير ديسمبر في شتاء هذا العام الذي لن أنساه.

١٩٩٨ ، العرائش ، و ذاكرة تنوء بالفشل، و البرد ، و الوحدة ، و الانتظارات و علقم الهزائم.

مرة جديدة أفيق على حقيقة مخيفة، أسمع ناقوس الخطر يزلزل كياني، يبث في حماسا صارخا و ثورة بلا تخوم. أفيق على يوم آخر من حياة الملايين العاطلين أمثالي، تتراءى لي الوجوه عابسة، و الوجوه فاترة. القلوب خائفة من المجهول، خائفة يستعمرها اليأس.

أحلام و نهاية الأحلام

السماء حين تزدحم بقطع السحاب تصير مكفهرة، تجري الرياح، و ينزل المطر. يوم جديد، و يعم صفاء و نقاء بعد كدر، و تشرق شمس الله على دنيا طاهرة. أنا سماء ملأى بالسحب، و لا مطر، و لا قطر، و لا هم يحزنون.

استياء عارم حل بالبيت. كلمات أسف تسقطها سمعي، عبارات مواساة من كل الأفواه. قاومت و تجلدت و تظاهرت بالشجاعة و رباطة الجأش. الانكسار في داخلي استحال حافزا و بعضا من الرجاء. جربت أن أهرب من الأوهام فاحترفت الكتابة. السخط و الغضب و الرفض أحاسيس تأججت في عروقي، فمزقت عذرية الورق، و ولد من ذا و ذاك كلام و بوح و عناق للألم و الأمل.

بقيت على حالي، اكتب و أفرغ الشحن ٧ سنوات متوالية، غير أني في السنوات الثلاث الأخيرة أحسست بالشعلة الحمراء الكامنة في أعصابي تنطفئ. بدأت أرى الغد محتجبا خلف كتلة من السديم، و رغم كل هذا، واصلت الكتابة.

فرغت من حلاقة وجهي، ارتديت ملابسي على عجل، و خرجت من البيت دون أن أسد رمقي بلقمة واحدة. أنعشت وجهي الحليق نسمات الصباح الباكر. اشتريت جريدة، و قصدت مقهى "بدر" المطل على بلكون اتلانتيكو. طلبت لنفسي فنجان قهوة سوداء، و قتلت الوقت بما تيسر ملؤه على شبكة الكلمات المسهمة، و انتقلت بعد ذاك إلى حل الكلمات المتقاطعة. بقيت بعض المربعات فارغة. هل تعلم هذه المربعات أني أكثر فراغا منها ؟ و إذا علمت فماذا سيحصل ؟ حولت اهتمامي إلى مطالعة الأبراج. كان ميزاني يهمس في قراره أذني : " أنت إنسان مزهار ، تنتظرك اليوم مفاجأة سارة ! ".

أحلام و نهاية الأحلام

بعد نصف ساعة غادرت المقهى عائدا إلى البيت، و حين هممت بعبور الشارع، كادت سيارة مجنونة لسائق أكثر جنونا تصدمني فترديني قتيلا. علمت بفراسة لا تخيب أني سأصبح عما قريب عرضة لمحاولات قتل من هذا القبيل، و فعلا فذاك ما كان فيما استجد من أيام، و السبب الرئيس أني متمسك بطباعة رواية سياسية حادة اللهجة كنت قد انتهيت للتو من كتابتها، و قدمتها لعدد من دور النشر رفضت بالإجماع فكرة نشرها، و استقبلت علاوة على ذلك، عددا مهولا من المكالمات الهاتفية من أشخاص مجهولي الهوية يهددونني بالقتل في حال إصراري على طباعة عملي الروائي.

وصلت إلى البيت، و تناهى إلى مسامعي تمازج أصوات و ضحك و فرح، و كانت مفاجأة...

هاأنذا ارتمي في أحضان سعيد، و ها هي ذي دموع أمي تنهمر مدرارة من شدة الفرح. سعيد، أيها الشرير، ها أنت تخبرنا أنك تزوجت باسبانية تكبرك ١٠ أعوام، - زواج المصلحة أيها الانتهازي، ها ها ها...- و أنك وجدت عملا أفضل، و أنك أيها المجنون في حدود سنوات قليلة ستحصل على الجنسية. أيها اللعين !

الآن انتهينا من العشاء في بيتنا الفقير من كل شيء إلا الحب و بهجة اللقاء بك بعض طول غياب. أيها الأخ الأصغر، هل نتمشى سويعة على طول بلكون اتلانتيكو رغم أن الوقت متأخر ؟ هل نستنشق بعضا من هواء الليل الرطب ؟

- صافي آ خويا العربي، ما يكون غير خاطرك آ الغزال...

- يالاه نخرجوا دابا !

أحلام و نهاية الأحلام

كنت و سعيد شبحين يمشيان بين فلول الظلام، و كان القمر فوقنا شلالا من الضوء، كان ساحرا في بهائه، و لكنه لم يكن كاملا ليلتذاك، فالكمال للواحد الأحد.

في قلب الليل و الصمت المسربل للمكان، كنت أحسني في مقبرة للموتى... نعم ! الموت يتعقبني من جديد، و ها هو أزيز رصاصة طائشة يخترق مسامعي. يا إلهي ! الغوث !

قبضت على يد سعيد بكل ما أملك من قوة، و ركضنا نحن الاثنين بجنون، و وقع خطوات رهيبة يأتينا من الخلف. ركضنا، و ركضنا، و ركضنا حتى احتبست أنفاسنا، و كنا في سباق بين الحياة و الموت. و فجأة، تسمرت في مكاني، و تجمد الدم في رأسي و شراييني. كانتا رصاصتين قاتلتين لم تخطئا الهدف. رصاصتان ؟؟ !! رباه ! هل قتلوا سعيد أيضا ؟! يا ربي ! يا ربي ! يا ربي !...

إنا لله و إنا إليه راجعون...

رحمك الله يا أخي العربي. أبكيك، و أبكيك، و في قلبي لوعة و حرقة، و من عيني يسيل طوفان دموع.

"يس و القرآن الحكيم، انك لمن المرسلين، على صراط مستقيم، تنزيل العزيز الرحيم"

إني اقرأ ما تيسر من "يس" على روحك أيها الفقيد العزيز. أبلغك سلام دار بيرنار الباريسية للنشر التي ترجمت روايتك للفرنسية و طبعت منها مئات الآلاف من النسخ و ضمنت توزيعها و بيعها على نطاق واسع بعد أن سلب لبها جمال و صدق و روعة عملك.

نحن الآن في مستهل ٢٠٠٠، و لقد صرت على الأقل هنا، في فرنسا التي تحترم الأدب و الإبداع و حرية الفكر... صرت كاتبا مشهورا.

أحلام و نهاية الأحلام

لا تحـزن آ خويـا العربـي... فلـيس هنـاك مـا يسـتحق الحـزن علـى هـذه الحيـاة الكلبـة. حتـى إسـبانيا تركتهـا، و كـارمن زوجتـي أيضـا تركتهـا، و أنـا الآن، أقـيم و أعمل مؤقتا ببوردو ، في انتظار المجهول...

و أنـا اقـرأ عليك، هنـا، فـي ذات المكـان الـذي لقيـت فيـه حتفـك ، اقـرأ آخـر فصـل مـن روايتـك، فـي زاويـة قصـية مـن بلكـون اتلانتيكـو، و قـرص الشـمس الحـزين يغـوص فـي مشـهد بحـري أكثـر حزنـا... أود أن أؤكـد لـك أنـك ماخسـرت مثقـال ذرة من هذي الحياة الفانية.

لقد انتقلت إلى دار الحق من دار الباطل...

قرة العين

لا أبدو خائفا في الصورة. هادئا و مبتسما انتصب في ساحة جامع الفنا. الثعبان ملتف حول عنقي مثل القلادة، و خلفي يمكن أن ترى من بعيد مقهى فسيحة، و من قريب أفواجا بشرية تتلاطم بالباعة و العرافات و المشعوذين و مروضي القردة، و هلم جرا. الصورة تتكلم لغة مفهومة. الصورة لها وجه ناطق و لسان معبر.

في قلب الإطار، انتصب واثقا من نفسي، و استقبل عدسة المصور بابتسامة واسعة. طفلتي الصغيرة سوسن ترمقني بنظرة كلها فرح ومرح...

صيف ١٩٩٠...

الحر يشعل نيرانه في مراكش. الماضي عاد بأحداثه و تفاصيله مخزنا للذكريات، الأمس هو اليوم، و اليوم هو الأمس، و لكن بعد حين، فالأعمار بيد الله...

سوسن و أنا جالسان في حديقة الحيوانات نتناول وجبة الغذاء فوق العشب. الطقس معتدل و الريح تلطف الجو. يرسم حاجبا سوسن شيئا من القلق و هي تخاطبني:

- أنا لا أستطيع أن ألف حول عنقي ثعبانا بهذا الطول و الحجم.

الثعبان ليس طويلا أو ضخما، بل هو قصير لا يتجاوز طوله ٧٥ سنتمترا. أعتقد أن عمره لا يزيد عن بضعة أشهر، و مع ذلك فسوسن تفصح دوما عن الخوف كلما أحست بالخطر يداهمها.

الحنان يهدهد فؤادي، و أحسني صبيا في محضر قرة العين:

- لا تخافي يا بنيتي، الثعبان لا يعض، و سمه منزوع، لا تخافي...

- أنا خائفة، خائفة...

و نعتصم بالصمت. بعد دقيقتين، نتبادل نظرات عميقة كلها مكر و حب و ندية بلورية، و نغرق في الضحك...

في جامع الفنا يحلو التجوال وسط الزحام، تقع العين على صنوف الطعام، فتنفتح الشهية للأكل، و تنسجم الأصوات و الألوان في احتفالية الحواس. تغريني الساحة بكل ما فيها، تعطر أنفي رائحة الشواء : لحم و سمك و توابل تدغدغ بحنان الأم المثالي فتحات الأنف. و على ذكر الأم، فإن أم سوسن، التي هي زوجتي، لم تستطع أن ترافقنا في عطلتنا بمراكش لمشاركتها في أشغال مؤتمر علمي حول الطب البديل بأندونيسيا. هذا هو...

جنون جامع الفنا يخلب الألباب، سوسن و أنا نلبي غريزة النهم و نلتهم أسياخا من الكباب، تليها حلوى و ليمونادة. بعد نهاية الوليمة، قميصي الصيفي يقطر، يتفصد جبيني عرقا، يا الهي ! إنه مثل الخرقة المبللة ! استفز سوسن و أنا مستغرق في الأكل :

!- الطعام لذيذ جدا، لا تكتفي بالسلطة، التحمي مع اللحم

تحرك رأسها يمينا و يسارا علامة للرفض. تزم شفتيها. آه يا طفلة، لا أبالي... أواصل المعركة...

ها نحن نخترق شوارع مراكش سعيدين، تنقصنا أجنحة كي نحلق في الأعالي من شدة الفرح. نمشي خفيفي الخطوات، أنا و قطتي الحسناء غصنان مائسان في مهب النسيم الساحر.

الليل في المدينة ذو طعم خاص. المراكشيون يعشقون السهر، الود يفيض من الوجوه، الأذن تلتقط في الفضاء الرحب نكاتا يطرب لها القلب، و هكذا تسود البهجة في مراكش، و تسبغ علينا نحن الاثنين موجة من السرور.

أحلام و نهاية الأحلام

منذ ٥ سنوات، صرت أبا، و مارست مهامي الاجتماعية و العاطفية بكل الأريحية و الحب، بعيدا عن التذمر، أو الشكوى التي دأب كثير من الآباء على التحلي بهما. الأطفال نعمة النعم و هدية من السماء، أ لم يتعب آباؤنا في تربيتنا ؟ بلى، و إننا لا نذكر في الغالب سوى لقطات احتضانهم لنا و تصابيهم معنا...

الذاكرة سلاح ذو حدين...

لنعش سعداء و لنتذكر الناس دائما، أقربين كانوا أو أغرابا، بالعاطفة و الحب...

أنا و أنت يا حبيبتي سوسن، يا غزالة أبيها و كنز أمها و فرحة العائلة كلها... أنا و أنت سعيدان جدا في مراكش، و لا حرف يترجم عظمة ما نحس به، و على رأي حنا مينة في إحدى روائعه الروائية : "الحب يعاش و لا يقال"، فلنمش في رعاية الصمت.

إن الصامتين يتكلمون لغة الحب...

نحاذي أشجار النخيل و هي ترنو إلى السماء بعيون حالمة. نقترب من مقهانا المفضلة، نجلس إلى أقرب طاولة، يأتي النادل، و نطلب برادا من الشاي الأخضر. نحتسي الشاي، و لكنك يا سوسني، تسقطين بعد لحظات فريسة للقلق :

- أنظر إلى ذلك الرجل المتجهم الجالس هناك، إنه يرميني بنظرات غريبة.

أحول بصري إليه، انه يجلس في مكانه كالحمل الوديع، صحيح أنه عابس القسمات، لكنه لا ينظر جهتنا بتاتا، أنا متأكد.

- و أنا متأكدة أنه يأكلني بعيونه...

- الصبر يا ربي !

- أرجوك يا غزالي...

و هـذه هـي عادتـك الأثيـرة فـي منـاداتي أيتهـا الشـقية ، هـل لأن غزالـي كلمـة تسجع مع غالي الذي هو اسمي؟ لست أدري...

- ...لنقم و نغادر، إني لا أطيق نظراته.

حلـيم أنــا، مــن زمـرة كـاظمي الغـيظ، حليييييــيم... لكــن هــذه المــرة فقــدت السـيطرة، و غـدوت كطنجـرة الضـغط، أغلــي، و صـحت فــي وجهـك بكـل مــا أملك من غضب :

- لن نقوم، سنظل جالسين في المقهى !

تتضرعين إلي أيتها العفريتة، و تخترق سهامك شغاف قلبي:

- لنقم، أرجوك...

تتمـادين فـي التوسـل، تلمـع عينـاك بتعـابير الرجـاء، كعـادتي أيتهـا المـاكرة أشـفق عليك، و نغادر المقهى ارضاء لك.

عنــدما نبتعــد عــن المقهــى، يتحســن مزاجــك، و تصــوبين إلــي نظــرات مفعمــة بالاعتـذار، تشـدين علـى يـدي بحـرارة دون أن تنبسـي بكلمـة، أرد عليـك بنظـرات معاتبـة، فتشـعرين بالـذنب لأنـك أفسـدت علينـا السـهرة بـدلالك المناسـباتي، و أنـا لا أريد أن أقول الدائم حتى لا أفضحك أمام القراء !

لا بـأس، الله يسـامح، لـم يحصـل شـيء، فلننـس الموضـوع، و لنكمـل طريقنـا الـى الفندق و لا مانع من ركوب سيارة اجرة إذا انهكنا التعب و طول المشي.

شـيئا فشـيئا، يشـق الرضـا طريقـه إلـى ملامـح وجهـك، تغـدقين علـي البسـمات، يلتمـع فـي عينيـك الفـرح. الجـو مـنعش، انـه يغـذي الخيـال بـألف خـاطر. هسـيس الصـمت يكـاد يهـيمن علـى المشـهد، و بعيـدا قـد يسـمع أزيـز دراجـة ناريـة أو هـدير محرك.

السـماء مرصـعة بـالأنوار، النجـوم ترسـل مـن عـالم قصـي إشـارات مليئـة بـالغموض و السحر، لا أفهـم لغـة الخطـاب، و لكـن صـلة حميمـة تتكـون بينـي و

بين النجوم. الهدوء هو السمة البارزة، الحر خف و حلت محله رطوبة رائعة...

فجأة تتوقفين عن المشي و تصيحين بلهجة شاكية :

- لقد تعبت من المشي، هل يمكن أن نرتاح قليلا ؟

من حسن حظنا أننا الآن بجوار مقعد خشبي تكتنفه الأشجار، و عليه و جب التوقف و الخلود للراحة تجديدا للنشاط المفقود.

الوقت لا يمر، و نحن جالسان فوق المقعد.

الزمن توقف عن الحركة، و النجوم و الأقمار و الشموس نامت في أفلاكها، الوقت لا يمر...

اني لا أستطيع إتمام هذه القصة...

أتذكر، و أتذكر، و أتذكر، و تعتصر قلبي عاطفة قوية... انك بعيدة عني يا سوسني، و أنا لم أرك منذ أكثر من عامين...

إن الهاتف و الفيسبوك و السكايب الأسبوعي أو اليومي أحيانا أدوات تواصل لا تفي بالغرض.

أتذكر، و أتذكر، و أتذكر، و تعتصر قلبي عاطفة قوية...

انك بعيدة عني يا سوسني، و أنا لم أرك منذ أكثر من عامين. أنت في بلاد العلم، و العمل، و الجدية، و الحضارة، و الثلج، و البرد و الصقيع... أنت في كندا... أحن إليك يا سوسني، اسمحي لي أن أبكي بعدك عني، لأني أب ككل الآباء...

لأني انسان...

بكاء، و ألم، و عبرات تلهب العيون و تحفر الخدود، حرقة الدموع...

و مرت الأعوام بسرعة عجيبة، و صار صيف ١٩٩٠ المراكشي ذكرى، و لكنها غالية عزيزة على القلب، و هاجرت إلى كندا يا نور عيني للدراسة و

العمل و الزواج، فلم أعترض و تركت لك حرية التصرف، فكنت، و لله الحمد، في أرفع مستوى. لم تخذليني قط يا سوسني، لقد بيضت وجهي أيتها الرائعة، و غدوت افتخر بك كلما جاءت سيرتك على اللسان...

و ها أنذا أفاجأ و أنا أفتح علبة إيميلاتي، في هذا اليوم المشهود - أي يوم ١١ سبتمبر ٢٠١٣ - برسالتك الرقيقة التي نزلت كلماتها على قلبي بردا و سلاما :

" أبي العزيز، غزالي كما ناديتك و سأناديك دائما، أنا و زوجي و طفلتنا بخير، كلنا بخير... لقد قررنا العودة الى المغرب بعد أن وجد زوجي لنا عقدي عمل محترمين جدا في مراكش، و غدا نطير من مونتريال إلى كازابلانكا على الساعة السادسة صباحا بالتوقيت المحلي، هل يمكن لك أنت و أمي أن تنتظرانا في المطار؟ إننا نموت شوقا لرؤيتكم. على فكرة، أحببت جدا قصتك الأخيرة التي لم تنشرها بعد... اقترح عليك أن تختمها كما يلي:

كم كنت اتمنى أن ينفلت الزمن من عقاله، فيصبح الليل سرمديا و يتسع لمزيد من السهر في مراكش، كم كنت أود أن تصبح الأشجار، كل أشجار الدنيا غابات نخيل في جزيرة معزولة يحلو بها المقام، و نسكن فيها أنا و أنت يا غزالي، و أنت يا أمي، يا مهجة قلبي، بعيدا، بعيدا عن كل البشر. هناك يمكن أن يكون الزمن مجمدا، والضحك الصافي بلا قيد أو شرط، و قطف الزهور، كل الزهور، مباحا، بدون حسيب أو رقيب. أعلم أني أحلم، أدرك و أعي أني أراود المستحيل. فليكن يا غزالي، يا قلادة من الماس في جيدي ، يا ملتفا حول عنقي مثل الثعبان في مراكش...

الرسام لا يموت

كان يا ما كان، في سالف العصر و الأوان، في بلاد عربستان، منذ ٥٠ سنة خلت ، كان هناك راو يردد :

"إن الألم النبيل مثمر للأمل، و الأمل يولد من رحم الظلام، و الظلام ليس ظلما فحسب، و لكنه غياهب الجهل، و التنكيل بالمبدعين، في الزمن الحاضر، أو الماضي، على حد سواء، هو سحق للفكر المتنور كما تسحق الصراصير."

نرجوك أيها الراوي، توقف عن المبالغة، كفى من التشاؤم، بالله عليك، اكتب لنا سطورا لها نطرب، و بها نفرح.

أوكي، سأحاول :

" في نهاية عام ١٩٦٤، كان هناك رسام سعيد، تباع لوحاته بأسعار خيالية، و كان سعيد المسعودي أي رسامنا و بطل قصتنا، يشمله رضا الأعيان و كبار رجال الأعمال، في ذلك الزمان...

في ذلك الزمان، كان كل شيء على ما يرام، لم يكن ثمة ذل، أو تهميش، أو أمية، أو فقر، أو قهر، أو رقابة، أو منع للحريات، أو...

كانت حياة سعيدة لكل سكان عربستان...

و كان الرسامون أكثر الناس رخاء، و راحة، فهم فراشات طليقة في عنان السماء، و يرسمون من وحي ما شاهدوا عالما طوباويا، فيه البشر، جميع البشر، و خاصة سكان عربستان، سعداء، بل يغرقون في السعادة، و يريدون لكثرتها أن يصدروها إلى بلدان اورستان، على متن البواخر، فالبحر هو الحد الفاصل بين عربستان و أورستان، و ثمة طبعا أشياء أخرى فاصلة، لكن...

أرجوكم، دعوني أحكي القصة كما هي، دون تزييف، أو زخرفة، أو تملق، أو تغطية عين الشمس بالغربال...

أنا آسف أيها الأعزاء، و لكن الأمانة التاريخية تقتضي مني أن أحكي لكم هذه القصة، كما حصلت، فالحق حق، و الحقيقة يجب أن تعرف، طال الزمان أو قصر.

ممتاز...

واحد، اثنان، ثلاثة، هيا بنا، و شكرا سلفا على انتباهكم.

يقول الراوي:

" أليس الحاضر مرآة للماضي ؟ هل يعيد الزمن نفسه ؟ هل الزمن واحد، وحيد، أو متعدد، متجدد، متولد ؟

عبر سراديب الذاكرة المظلمة يصمد بصيص من نور.

ما زال يذكر كيف اقتاده خمسة رجال أقوياء إلى الصحراء. شرعوا يستنطقونه، يستفزونه و ينهالون عليه بالعصي إن رفض الإجابة عن أسئلتهم و غالبا ما كان يرفض. قيدوا رجليه، اسقطوه على وجهه، فانفجر الدم مائلا إلى الأسود من أنفه، و لطخ الأرض بقع مرعبة.

كيف كانت البداية، و ما عساه يكون الأمر الخطير الذي زج به في هذا المصير المهول ؟

رجع إلى ذاكرته الصامدة رغم التعذيب، و استرجع كل لحظة عاشها قبل أن يحل به ما حل اليوم.

تجرأ يوما، و فعل ما فعله الكثيرون فاختفوا على اثره في ظروف غامضة...

لقد اشترى ذات يوم دزينة ألوان بسعر مرتفع، و اختار لعمله الجديد فرشات أنيقة تعكس حسه الفني الناشئ، و انزوى ساعات و اياما و ليالي في مرسمه، و جلس يعمل. رسم مناظر طبيعية جميلة : جبال و غابات تخترقها الجداول

كالثعابين. وسط الغابات، رسم ايولا و غزلانا تمرح، و فوق السنديان حط طيورا تغرد.

و دون تردد، نقل لوحاته الفنية لإحدى المعارض، فلقي من الزوار كل اطراء، لكن ما ساءه أنه لم يسمع كلمة نقد واحدة، و هو بطبيعته محب للنقد، فبفضله يتلافى الأخطاء و يجود الرسم. كان في الظاهر يبتسم لمجاملات المعجبين و تشجيعاتهم، لكنه في العمق يتألم، و يتألم بشدة، فما الحل ؟

ألقى ألوانه الفاخرة في سلة القمامة، هكذ من دون تفكير. فيما بعد لن يساوره الندم على ما فعل. اشترى ألوانا أخرى بثمن زهيد، و صمم هذه المرة على أن يعمل وفق خطة جديدة : في النهار يتجول طويلا في أحياء المدينة، و في الليل يرسم وحي جولاته.

صورت رسوماته الأولى تيارا إبداعيا فريدا من نوعه. فلوحته الأولى "صرخة" مثلت شابة في الثلاثين، ترتدي ملابس رثة و تفترش الرصيف، و رضيعها معلق إلى ثديها يلتقم حلمته الجافة، و يصرخ من شدة الجوع و البرد. الأم لا حول لها و لا قوة، ها هي ذي تهدهده محاولة اسكاته، لكن الرضيع لا يكف عن الصراخ.

و لوحته الثانية "التهام" مثلت نقيض الأولى تماما. رجل في أواسط الخمسين، وهو جالس إلى مائدة رصت عليها اشهى الأطعمة، بطنه الضخمة ترقد فوق المائدة و هو يلتهم الطعام دون توقف، و غير بعيد عنه زمرة من الأطفال الجياع.

عرض العملين إضافة إلى عشرات من اللوحات ذات تيمات مشابهة في رواق الفنون، و قابله الرأي العام باستياء صادم. و كان لرسوماته الأولى، و الحق يقال، وقع أفضل و قبول على أوسع نطاق؛ فما زال يذكر وقتذاك وقفته

الواثقة أمام عشرات الكاميرات، و أمام جحافل الصحفيين، و على فمه بسمة النشوة و النصر.

و اليوم، فإن الحاصل هو العكس : خيبة أمل كبيرة يعرب عنها الجمهور، و عاصفة من النقد الهدام.

فلماذا كل هذا اليوم ؟

في مستهل حياته الفنية أغرقه كبار رجال الأعمال بالدعوات و أتحفوه بالهدايا، فكل ليلة، يرتدي بذلة سوداء للسهرة، و يحضر حفل عشاء في إحدى الفيلات الجميلة المطلة على البحر، أو يذهب لسماع الموسيقى في دار الأوبرا بناء على دعوة خاصة. و لم يمر أسبوع واحد حتى أصابه الإرهاق جراء السهر المتواصل، فلزم البيت طلبا للراحة، و أخذ يفكر.

كيف يحقق معادلة فن هادف، و لو صادم، و يكسب في الآن نفسه راحة الضمير و استحسان الجمهور؟ كيف يضرب العصفورين بحجر واحد ؟

لم يمهله القدر وقتا كافيا ليجيب بشكل مستفيض عن السؤالين، لكنه لم يتوقف عن الرسم و ربطه بالتنمية و العدالة و الحرية و الكرامة و تقدم المجتمع...

ها هو ذا يسهر الليالي، و يرسم، و يرسم، و يرسم... و ها هي ذي لوحاته تحرق أمام عينيه، و فرشاته تكسر لتصير أشلاء...

رباه ! ألسنة اللهب تلتهم حصيلة أيام و ليالي كاملة من الإبداع. انه يبكي من صميم قلبه، و يحاول بكل ما أوتي من قوة أن يصمد، أن يحتج، أن يصرخ، و لكن هيهات، فالضربة موجعة جدا، فهل هي قاضية ؟

انه مرمي في الصحراء و الجلادون يمارسون عليه أقسى و أقصى صنوف التعذيب. كان الجلادون يتقاذفون الرسام بين أيديهم، و يحاولون في صبر مستميت أن ينزعوا من فمه كلمة الاستسلام، لكن دون جدوى.

ها هم الآن يفقأون عينيه بقضبان من الحديد حامية، و يقطعون أنامله، و يشرعون في الحال في خياطة فمه. كان من الممكن أن يظل الرسام على قيد الحياة يوما أو يومين أو ثلاثة أيام على أقصى تقدير، لكنه مات على التو، و قد ارتسمت على وجهه تكشيرة متوعدة.

تعجب الجلادون من هذا الموت السريع، تعجبوا كثيرا و لسان حالهم يقول : " كان من الممكن أن يعيش أكثر لكن لا يهم، ارتحنا منه إلى الأبد، فلندفنه فورا، و لنمض إلى حال سبيلنا..."

في مساء اليوم الموالي، نصب فوق قبر الرسام سرادق ضخم، و هب إليه فريق من كبار رجال الأعمال، و هم يمنون النفس بحفل ساهر بهيج...

كانت الصحراء تتمايل على أنغام الموسيقى و الرقص، و كان المدعوون للحفل جذلانين، يرفل رجالهم في حلل أنيقة، و نساؤهم في فساتين ذات ألوان صارخة. بين حين و آخر، كانت الضحكات تعلو، و وابل التصفيق بدوره لم يكن يتوقف.

و فجأة، قام الرسام من قبره، وعلى شفتيه بسمة من تلك البسمات السريالية الغامضة التي طالما صادفتموها في روائع اللوحات العالمية. جعل ينفض حبات الرمل العالقة بشعره، فاهتز و ارتج الحاضرون، رجالا و نساء، من الرعب، و تراكضوا في جميع الاتجاهات، و صرخاتهم هستيريا تمزق الصحراء.

و استل أحد رجال الأعمال من جيبه مسدسا و أطلق على الرسام ثلاث رصاصات قاتلة، مباشرة جهة القلب...

لم يسقط الرسام أرضا، لم ينقلب جثة هامدة، و لكنه تلاشى في الفراغ، و انبجست من رأسه ثلاث حمامات أخذت تحوم في دوائر، و بعد دقيقتين،

طارت بعيدا، بعيدا جدا، حيث لا جلاد، و لا رصاصة، و لا مسدس، و لا تعذيب، و لا بشر.

و ها هي ذي الحمامات الثلاث إلى يومنا ما زالت تحلق حرة منسابة في الأفق الرحب..."

أبواب الرضا

يقول الراوي :

"لكل منا آماله و أحلامه، و كل واحد منا يريد أن يؤمن في أعماق وعيه أن بمقدوره أن يكون شاهدا على أحداث مضت، بالتذكر، و الحكي، و البوح، و كتابة ذا و ذاك في قالب فريد قوامه عناق للأنا مع بعض الذوات. لن أنسى ذلك اليوم الذي شعرت فيه أني أعيش متعة لا تضاهى : كتابة أول حكاية يجود بها القلم بعد أزيد من ٢٠ سنة عشتها في بلاد المهجر. فبعد بضعة أشهر من عيد ميلادي الثاني والأربعين، جاءتني مكالمة هاتفية من شخص قريب إلى القلب، بعيد عن العين، منذ أن قررت في السنوات الأخيرة أن أجعل من باريس مكانا لإقامتي الدائمة.

كان أبي الذي زف إلي الخبر السعيد : " سآتي لزيارتك بفرنسا لمدة ١٠ أيام، بعد أن مللت البقاء وحدي هنا في مراكش. تعلم أن والدتك تؤدي فريضة الحج، و أنا أحتاج لرؤيتك يا بني، فماذا ترى؟"

-المسألة لا تحتاج إلى استشارة، أنت أبي الغالي، مرحبا بك في كل وقت و دون كلفة أو استئذان. أنا ابنك الوحيد و الدار دارك...

-الله يرضى عليك آ ولدي...

- بلا جميل آ الوالد...

أحلام و نهاية الأحلام

كان الفصل شتاء، و كانت باريس غارقة في ظلال من الكآبة و الصمت، و كان مجيئك شمسا أدفأتني من الداخل و الخارج، و أحيت في الشوق إلى الأصل و المنبت و مشرق الأنوار الخالد المخلد، إلى المغرب. و كانت زوجتي، و يا لغرابة الصدف، في سفر أيضا، و كانت الوجهة دولة البرازيل حيث تشارك لمدة أسبوع كامل في مؤتمر دولي حول الفنون المسرحية.

استقبلت أبي في شقتنا الصغيرة المكونة من غرفة واحدة و حمام صغير و مطبخ ليس بصغير البتة، و لكنه متناهي الصغر. كانت الشقة البالغة مساحتها ٢٦ مترا مربعا فعلا صغيرة، و لكن ذلك أمر مألوف جدا في وسط باريس، و لدي زملاء في العمل يسكنون في منازل أصغر أو أكبر من ذاك ببضع مترات. و كان ما يعجبني في هذا المسكن الذي اربض به منذ ٣ سنوات موقعه الاستراتيجي؛ فهو على مقربة من المترو، و مكان عملي باحدى أكبر شركات الاتصالات بعاصمة الأنوار، علاوة على أنه على بعد ١٠ دقائق من نهر السين و الحي اللاتيني مشيا على الأقدام.

و كان أبي في كل مرة يطلق في وجهي الجملة ذاتها عندما يكون في ضيافتي:

- كيف تستطيعون السكن في هذي العلب ؟ علب السردين يا ابني...

و كنت دائما أبادله الإجابة ذاتها، بشحمها و لحمها، و عظمها و ادامها :

- هاذ الشي اللي أعطى الله آ الوالد، هاذي هي فرنسا...

- هاذي هي فرنسا أنا متفق معاك، و لكن في المغرب كان يمكن ليك تعيش أحسن و توسع مع راسك، و لكن كيبقى الاختيار ديالك...

آه من سماع الأسطوانة نفسها للمرة الألف (قلت في سري)، و لكن لا يهم، إن أبي من حقه أن يسدي لي النصح دائما و أبدا، فلأسمع منه و لا أجاهره بالاعتراض. كيف اعترض على سكني في علبة سردين وأنا عاشق للسمك و خصوصا السردين المشرمل المكونة كل قطعة مقلية منه، من سمكتين مشرحتين متراكبتين متعانقتين بما يعكس عبقرية العقل المغربي الذي أبدع طريقة فريدة، و لعلها نادره في العالم بأسره، لتضخيم حجم السردينة المقلية ؟؟؟

دعنا الآن من السردين، و قل لي هل ما زلت تذكر يا أبي زيارتك الأولى لنا في باريس، عام ٢٠٠١ ، بعيد حصولي على درجة الدكتوراه في هندسة الاتصالات؟ أتذكر فرحتك الطاغية، و علب الحلوى المنزلية (من صنع يدي أمي الكريمتين) التي أصررت على أن تكون موضوعة إلى جانب الشاي المنعنع على سفرة البوفيه التي تحلقنا حولها بعد نهاية مناقشة الأطروحة ؟

أذكر كل ذلك و عداه سيل منهمر من الذكريات يجرني إليه جرا. ما زلت أراك في أفكاري و كثير من أحلامي رضيعا لم تكمل شهرك الرابع، و أنا أحملك بين ذراعي عند رجوعي إلى البيت بعد عمل يوم شاق في الصباغة و البناء ، و ما زال ماثلا أمام عيني فرحك البريء بلقائي، بل ما زال صراخك وأولى الأصوات التي خرجت من حلقك و أنت لم تكمل شهرك السادس، و أيضا دموعك طلبا للبن يسد رمقك، و لعابك الفياض حول فمك و أنت محمول كالملاك الطاهر بين ذراعي، و و و... كل ذلك حاضر في وجداني بقوة الحب يا فلذه كبدي صغيرا كنت أو كبيرا، هنا في فرنسا، أو يوما ما، حين يهديك المولى، و تقرر أن تعود إلى مشرق أنوارك و مغرب أجدادك الأبدي...

متى تعود يا بني صحبة أسرتك الصغيرة، و أبنائك الذين ما عدت أستطيع أن أفهم تركيبة هويتهم ، أ عرب هم أم فرنسيون؟ أم بين هذا و ذاك؟ و إن كان الأمر كذلك فما هوية هذا النص- نص؟ و أرجوك أن تسامحني، يا ولدي، على فجاجة كلماتي فأنا لم أكمل تعليمي حتى أكون أنيق الكلام مرتبه مثلك. أحيانا يخونني التعبير لكنك تعلم علم اليقين أن قلبي مليء بالخير و أني أتمنى لك أفضل الأشياء في العالم...

كنت أتظاهر بالاهتمام لما أسمع من باب اللازم من المجاملات، غير أني في العمق كنت ضيق الصدر، و استعجل في دواخلي المرور إلى حديث آخر، بل أميل إلى اعتبار هذه النصائح مفرطة في أبويتها و مشتتة للانتباه. و خلافا لكل هذا، كنت استمتع، و أنا أخط بيميني هذه السطور، بقراءة الجمل الأخيرة من هذه الحكاية، والتي أقسمت في سري ذات :يوم حزين من شتاءات يناير أن يكون أبي أول إنسان يقرؤها، و فعلا كان ذلك

" إني أعجب لما يدعوني للكتابة اليوم، فالكتابة فن لم أعرفه لا بالصدفة و لا بالاحتراف. و الأعجب من هذا أني لم أفكر يوما ما أني سأصبح من مشاهير الكتاب في العالم العربي، و لكن قدرة الله فوق كل شيء، و أمره بين الكاف و النون، أفلا أكون من الشاكرين ؟ بلى، إني اشكر أولا المولى القدير لأنه وهبني أبا عطوفا مثلك، و أشكرك دون أن أوفيك حقك من الشكر، على كل يوم و ساعة و دقيقة بل و ثانية أفنيتها من عمرك في تربيتي و رعايتي، و هيهات أن أرد لك و لو عشر ما وهبتني إياه عن طيب خاطر، بغريزة الأب و عطاء المحب و تفان بلا حدود و دون مثيل. و أنا أداعب هذي الخصلات

الذهبية من شعر مريم ،آخر العنقود ، صغيرتي ذات الشهور الخمسة، و التي رزقت بها بعد سنوات طويلة من الانتظار و الصبر و الأمل و الرجاء و الطرق اللامنتهي على أبواب الأطباء، و قبل ذاك على باب الرحمن، و و و... و أنا أناغي هذا الملاك الساحر، و أتحمل صراخه، و أحمله دون كلل الساعات تلو الساعات في اليوم الواحد، و أراقب حرارة لبنه، و أغير حفاظاته، و أتحمل ضاحك الوجه تجشؤاته و ترجيعات شرابه... أود أن أخبرك أني ما وعيت عظمة أن تكون أبا إلا عندما أصبحت كذلك، و أني أخجل من نفسي حد الموت عندما كنت في الخامسة عشرة، و كان صوتي ، في مرات كثيرة، يعلو فوق صوتك في تحد سخيف و لسان حالي يقول : "ما لهذا الأب كلاسيكيا قديم الأفكار بحيث لا وفاق معه و لا تفاهم ؟ "

- أب كلاسيكي و قديم الأفكار؟؟؟، ها ها ها... تعجبني هذه الجملة الأخيرة من حكايتك المفعمة بالصدق و حرارة الاعتراف، و لكم أتمنى أن تنشرها في أقرب الأوقات، غير أني التمس منك، و لا تعتبر الأمر تدخلا في متن الحكاية، التمس منك أن يكون آخر ما تختم به حكايتك ما يلي

"أنت ابني و كنزي الغالي و ستظل دائما كذلك أيها العفريت، لقد راقتني صحبتك في باريس رغم البرد و الجو الماطر، بل رغم الثلج و وجوه الناس العابسة الصفراء الخالية من الابتسام. زرنا متى شئت، بل و كثيرا، فنحن نحتاج بقوة لرؤيتك، بعد أن نيفنا على السبعين، أنا و أمك الحاجة كنزة، تقبل الله حجها و غفر لها و لنا و لسائر المسلمين... والله يرضى عليك آ ولدي... "

أحلام و نهاية الأحلام

كان يا ما كان، كانت هناك فتاة تدعى أحلام، و كانت أحلام البنت الصغرى لأسرتها الساكنة في بيت جميل و نظيف بوسط المدينة ، و كانت أحلام تستمتع بحياة هادئة في كنف والدين محبين كريمين لم يبخلا عليها و على سائر إخوتها بمال أو رعاية، و أهم من ذا و ذاك الحب.

هل أتوقف قليلا ؟ أليست "كان يا ما كان " عبارة تستهل بها قصص الأطفال و الخرافات الضاربة في القدم ؟أليست "كان يا ما كان" عبارة لتنويم العقول و تخدير الأحاسيس ؟ ألا يراد منها الابتعاد عن الواقع و الابحار في شطآن الخيال ؟ كلا و ألف كلا... رغم أن قصتنا معاصرة، رغم أن أحداثها تعود فقط إلى ٢٠٠٨ ، فدعونا نحتفظ بهذه البداية، على الأقل حتى نشعرك يا عزيزي القارئ أن هناك ما يستحق الحكي فيما يلي من سطور و أحداث.

كانت أحلام قد ختمت هذا العام ربيعها السادس و العشرين، و كان كل من يراها يعتقد بل يجزم أنها شديدة اليفاعة، دعونا نبسط و نقل أنها تلوح أصغر من سنها : ١٨ أو ١٩ سنة على أقصى تقدير. أما عن أوصافها، فهي فائقة الجمال، متوردة الخدين بحيائها الطبيعي أو دونه، و في عينيها ضحك دائم و بشر و عشق جنوني للمرح و الحياة.

و في مرات كثيرة، حينما تشاهد بعضا من المسلسلات الرومانسية وحيدة أو رفقة بنات خالاتها على شاشة التلفاز، تستعجل ظهور فارس الأحلام في

حياتها، ولكم تتمنى أن تمسك معه تفاحة حمراء فواحة العبير رائقة المذاق، و في قضمة واحدة يتلاقى العاشقان. و بما أن فارس الأحلام لم يظهر لحد الآن، فإن أحلام لم يتبق لها سوى الحلم.

كان والد أحلام عاملا بسيطا في إحدى شركات التعليب، و كانت أمها ربة بيت. لم يكن هناك في مدينتها البسيطة الرابضة على الساحل الأطلسي إلا صالة سينما واحدة، و مسرح أثري عتيق جلله غبار النسيان بعد أن تناسى المسؤولون ترميمه، و مركز تجاري صغير و بعض المقاهي البئيسة. لذا كانت أحلام تنتظر اليوم الذي سيأتي فيه فارس الأحلام لينتشلها من هذي الحياة الضيقة و يرحل بها إلى عوالم شاسعة و آفاق لامحدودة.

و ذات ربيع مشرق، توسطت سماءه شمس وهاجة، و داعبت أشجاره نسائم رقيقة، لاحظت أحلام، و هي تملأ رئتيها بالهواء البحري، في جولتها اليومية على ضفاف الكورنيش، أن اللحظات التي كانت تدخل السرور إلى قلبها و تشعرها بالبهجة أكثر من أي شيء آخر هي تلك التي تقضيها في معية البحر، بالرغم من الوحدة أحيانا و زخات المطر أو تيارات الهواء البارد أحيانا أخرى.

و كانت أحلام فريسة للعذاب النفسي، خاصة في السنوات الثلاث الأخيرة، و تدعو الله في سرها أن يعجل بالفرج، و ذات يوم تخيلت أن المحيط اللانهائي استحال آذانا بعدد النجوم و حبات الرمل بل و ذرات الكون بأسره، و أن هذه الآذان كلها صاغية لها. يا إلهي، كم كان ذلك رائعا، و لكنه حلم. و حتى تتأكد

من ذلك، قرصت يدها فاحمرت ثم ازرقت، و خاطبت نفسها ساخرة : متى تفيقين يا بنتي من الأحلام؟

لم العذاب ؟ ما الذي يكدر صفو أحلام ؟ كيف لهذه الفتاة الفياض قلبها شبابا و براءة أن تجرب العذاب ؟ كيف لقلبها أن يكتوي بسياطه ؟

كانت أمها تعيد على مسامعها كل يوم، منذ ثلاث سنوات خلت و حتى الساعة، أنه بات لزاما عليها أن تظفر بزوج مناسب، و على قدر كبير من المال، أما المكانة العلمية أو الاجتماعية فلا تهم بتاتا. الذي يضمن العيش الكريم و راحة البال مال وفير و سخاء في الإنفاق و كفى. و كانت هذه الكلمات قد أصبحت بقوة الترديد لازمة حفظتها عن ظهر قلب، بل إن كلام أمها أصبح مسجلا في ذهنها مثل أسطوانة قديمة.

و جاء صيف ٢٠٠٨ بحره و أفراحه و صخبه و أعراس الجيران الصادحة حتى مطلع الفجر، و وجدت أحلام نفسها، تحت الضغط العائلي، متزوجة بأحمد، رجل يكبرها بخمسة عشر عاما، لا تعرف شيئا عنه، و لم تحس نحوه و لو بمثقال ذرة من الإعجاب، و لم تشعر و لو لهنيهة أن هذا هو نصفها الآخر، قد فصل على مقاسها، و معه ثمة مجال للحلم و الخيال و بناء الآمال و استشراف المستقبل.

و كان أول تحول حصل في حياتها الجديدة أن تركت بلدتها الساحلية العزيزة على القلب، أن نأت عن المنبت و المرتع و الموطن و الجذور، لتشد الرحال إلى مدينة ثانية لم تتخيل يوما أن تسكن بها. هنا في قلب الصحراء، على

مبعدة مئات الكيلومترات من مسقط رأسها أصبح واجبا عليها أن تعيش مع زوجها أحمد.

- اسمعيني جيدا يا أحلام، أنا رجل ملتزم و أخاف رب العالمين، اني لا أقبل عمل المرأة مهما كانت الأسباب. فلتمكثي في البيت، و لك ما شئت من الطلبات.

- و لكن... (و تحجرت في مآقيها دموع الصدمة، دموع من لسع غدرا)، ليس هذا ما اتفقنا عليه، أنا سوف أواصل عملي في قطاع السكرتارية بالبحث هنا عن عمل جديد.

- عمل جديد ؟ و هل سأحرمك من المال و العيش الكريم حتى تلجئي للعمل ؟؟

- ليس كل شيء يقاس بالمال يا أحمد. أنا أريد أن أواصل العمل لأني بذلك أحقق ذاتي...

- تحققين ذاتك؟ تريدين أن تختلطي بالرجال؟

- اسمعني جيدا، يجب أن تفهم أن...

- أنا لا أريد أن أفهم شيئا. ما فهمته الآن أنك تجهلين دينك، تجهلين الحدود بين الحلال و الحرام، و يا للأسف...

- أرجوك دعني أتكلم...

- لا كلام و لا هم يحزنون. اختاري واحدا من اثنين : المكوث معي زوجة مصونة أو العمل خارج البيت. انتهى النقاش...

"لقد انتهى النقاش فعلا مع هذا الرجل، و يا لي من غبية حين اخترت أن أظل معه. لا تفاهم مع هذا الأصم. و أنا أدبج هذه السطور بمداد الخيبة و الندم، يشق علي أن أواصل الكتابة، لأن دموعي تنهمر غزيرة على الورقة، و بات مضحكا أن ابحث عن منديل حتى أضعه حاجزا بيني و بين بنات أفكاري التي أطلق لها العنان. فلأكفكف دموعي بكم جلبابي و لأواصل البوح للورقة، كما كنت أفعل مع البحر.

البحر ! آه من لوعة الذكريات، وا أسفاه على النورس الطليق الحر الذي كنته ! وا وجعاه !

في هذه الليلة الساهرة من نهاية يناير ٢٠١٤ ، استغل خروج أحمد منذ أسبوع كامل للتجارة في أقصى الشمال، و اكتب هذه الاعترافات. هل تسمعني هذي الكراسة المانحة عذريتها لرأس القلم ؟ هل يسمعني الليل، و الجدران، و دقات الساعة، و رمال الصحراء، و ابنتي ليلى ذات السنوات الأربع، و شقيقها الجنين في رحمي الذي سيخرج للعالم بقدرة المولى بعد ٣ شهور أو

أقل ؟ هل يسمعني البوح نفسه، و الكلام و الصمت و الألم و الأمل في غد أفضل ؟ "

بم أحلم ؟ بغد أفضل ؟ و إذا أصررت على الطلاق من الوحش و نلت مبتغاي، و عدت إلى بلدتي، فما مصير هذين الملاكين ؟ الضياع ؟ شد و جذب بين أم مطلقة و أب ينتظر أول فرصة ضعف مني ليستأسد و يتسيد و يتجبر ؟ و المجتمع؟ و كلام الناس ؟ و بأي وجه ألقى أسرتي هناك ؟

رباه، إن رأسي سينفجر، غفرانك، لكني كرهت الحياة...

و هنا تحسست أحلام أسفل بطنها بيد مرتعشة بالحب و الرجاء، و صارت تتراقص بجنون أمام عينيها عشرات الذكريات و الصور : المنشأ، و البحر، و زمن العذرية و البراءة، و الخنوع، و الخسران، و الرحيل، و القبلة الأولى و الأخيرة دون عاطفة أو طعم ،و انتظار حب لم يأت، و الجري وراء الأوهام، و الافتضاض الغاشم، و الألم، و الدموع، و عض الأنامل من الندم، و ضياع الآمال، و السجن، و الصوت الجهوري الآمر لسي السيد، و غلطة الإنجاب مع حضرة الغبي...

و هل نحيا و نرافق و نلد و نتناسل دون حب ؟

ما الجدوى؟

دوامة اللامعنى، و نهاية الأحلام...

شيء من القسوة و كثير من الحب

لطالما بحثت عن قبس النور الذي يطهر الروح من الصدأ...
أقول ذلك و تنهال على فكري حياه كاملة من الأحداث و الصور و الانطباعات و ذكريات العلقم و العسل.ما جدوى التذكر و الإبحار في محيط الماضي ؟ ما أهمية أن يكون بين الماضي و الحاضر شبر أو أقل، على الأقل في تصوري الشخصي ؟ لم أفكر و اكتب و اعبر ؟ هل الكتابة خلاص و راحة و طهارة و صلاة في محراب الذات و توحد مع روح الكون ؟

دعونا من كل هذا الكلام الفلسفي...

شارفت هذا العام سن التقاعد، صرت ستينيا، و غادرت الوظيفة العمومية بعد خدمة استمرت أزيد من ٣٥ سنة في قطاع التعليم...

و نظرت بعين المتأمل إلى كل السنوات التي أفنيتها في خدمة الوطن، فانتبهت إلى أني أديت عملي دواما على أحسن وجه، و كانت تحذوني رغبة مستمرة إلى أن أعطي أفضل ما لدي لجيوش المتعلمين الذين درستهم على مدار أزيد من ثلاثة عقود.

لم أكن كاملا، و كانت لدي أخطائي كأي إنسان، فمن الكامل غير المولى المنزه عن النقص ؟

أحلام و نهاية الأحلام

لطالما بحثت عن قبس النور الذي يطهر الروح من الصدأ...

أقول ذلك و بصري يجول بين مئات الكتب التي تزدان بها مكتبتي، هذي الكتب حصيلة سنين من القراءة و طلب العلم و عشق التعلم و الرغبة المجنونة في الأفضل. منذ بدأت القراءة في سن مبكرة بتشجيع من والدي الذي كان يحترف القضاء، كف الملل عن أن يكون هو الملل، و صارت أيامي اغترافا لا ينقطع من عيون لا تنضب.

لقد تبدل منطق الزمن فما عاد هناك نهار ولا ليل ولا شمس ولا نجوم ولا رقود و لا قيام. كنت أنا الكتب و كانت الكتب أنا. و ساعدتي إدماني على المطالعة على مقاومة الفراغ، و تجنب القيل و القال، و التغلب على القهر النفسي، و رداءه المجتمع، و ركاكة كثير من العقليات.

و أول أمس قبل أن انتهي من كتابة هذه السطور، دار بيني و بين ابني الأصغر هذا الحوار

- عندما أقارن بيني و بين أصدقائي في المدرسة، ألاحظ يا أبي، أنك كنت قاسيا جدا في تربيتنا...

ارتسمت على وجهي ابتسامة واسعة، ألقيت على خليل نظرة كلها حنان و سألته

- هل ينقصك شيء أيها العفريت ؟ هل قصرت يوما في إطعامك و تطبيبك و ملابسك، و الإنفاق على دراستك و أسفارك و هواياتك ؟

و كان الجواب أن تورد وجه خليل من الخجل و أن خفض عينيه فإذا بهما تلامسان الأرض.

- بلى يا أبي، لقد وفرت لي و لإخوتي أجمعين كل شيء كنا نحتاجه.

- فعلت، و كان و ما زال ذلك واجبي حتى أفارق الحياة.

- أطال الله عمرك يا أبي...

" لطالما بحثت عن قبس النور الذي يطهر الروح من الصدأ. بحثت عن قبس النور بالإخلاص، و الكفاح، و السهر على تلقين الخلق الطيب، و الإرشاد إلى الطريق القويم... صحيح أني يا خليل كنت قاسيا بعض الشيء في تربيتكم، و أني كنت أحيانا في أوامري و نواهي مثل العسكري، و لكني يا بني انتمي لجيل قديم غير جيلكم فافهموني ، إن حرصي على الأخلاق و الانضباط و الحكمة كان مرفوقا ببعض الترهيب، و لكن أيضا بمقدار هائل من العطف و الحب. فهل حرمت أنت أو إخوتك يوما واحدا من الحب ؟؟؟

بركات الأم

من منا ما زال يذكر الحضن الأول و القبلة الدافئة على الجبين و تلك العينين المفعمتين بالود و الأمل و دعوات النجاح و البركة و الأمان ؟ من ينسى اللبن الفياض و الخبز الدافئ و الحساء الساخن و سهر الليالي و نكران الذات و الحب الخالد و قمة التفاني ؟

الذاكرة عاجزة عن استحضار كل الصور، الكلمات لا تكفي لوصف هذا المخلوق الاستثنائي، بحار الدنيا مداد و أشجارها أقلام و الكتابة عنك مراودة للمستحيل، و عشق، و انصهار مع الجمال و توحد دائم بمعاني الوفاء.

الأم...

لا... أعلم أني لا أبالغ، أفكاري صافية، القمر في السماء منير بهي رائع الاستدارة، و تعتريني رغبة مجنونة في الكتابة... فالكتابة تجرد و اعتراف و خلاص و أكبر و أعظم انتصار على الذات.

أين أنا ؟ إلى أين أذهب ؟

عندما أكملت الثامنة عشرة من عمري و نلت شهادة البكالوريا، حزمت حقائبي، و ودعت أصدقائي، و جهزت نفسي لبعثة دراسية إلى الولايات المتحدة. كنت فرحا بهذه الحياة الجديدة التي تنتظرني هناك، و كانت معي في

أحلام و نهاية الأحلام

المطار تشيعني بعينين دامعتين و وجه كسيف غارق في ظلال من الحزن و التفكر.

و كنت ليفاعة سني لا أحس بحبها العميق نحوي، بل كنت أفكر فقط في سعادتي الشخصية و بناء مستقبلي الدراسي و المهني. و كان ذلك أمرا لا أعاتب نفسي عليه كثيرا، فقد تبين لي مع أبنائي، بعد أن نيفت على الخمسين، أن الحياة أطوار و مراحل: طفولة و مراهقة و شباب و نضج فكهولة و شيخوخة و فناء. فكيف للمراهق الذي كنته آنذاك أن يحس بدموعك، لحظة الوداع، في المطار، و أنا في طريقي إلى أمريكا ؟

و مرت السنوات بسرعة البرق، و عدت إلى المنبت مسلحا بالعلم و التجربة و الشهادات العليا، و كافحت و ناضلت للحصول على عمل محترم، و كانت دعواتك و بركاتك ترافقني ليل نهار و صباح مساء، و كنت أؤمن رغم السنين المديدة التي قضيتها في بلد شعاره المادية الطاحنة والاعتماد على النفس... كنت أؤمن برضا الوالدين و بركة الأم على وجه الخصوص.

و لم يمر وقت قصير حتى نلت مبتغاي، و تم تعييني مديرا لإحدى شركات الاتصالات الضخمة، و مرت شهور قليلة أخرى و وجدتني أكمل نصف ديني بالزواج من جميلة الجميلات، و كانت هذه الجميلة من اقتراحك أيتها الأم الغالية.

و توالى تعاقب المسرات، الواحدة تلو الأخرى، و كنت كل مرة أتلقى من صلواتك و بركاتك فيضا لا ينضب، حتى أني حرصت على زيارتك مرات

كثيرة كل أسبوع، و وضعت فوق مكتبي ذاك المصحف الذهبي الجميل الذي أهديتني إياه لدى رجوعك من الديار المقدسة، و أصررت على تقبيل يدك في سائر الأيام و المناسبات و هذا رغم اعتراضك الشديد، و دربت أبنائي على إغراقك بالهدايا ليس فقط في عيد الأم بل في سائر الأعياد.

لا أستطيع أن أكمل الكتابة، فأنت أروع و أبهى من سحر كل الكلمات. سأظل صامتا متدثرا برداء الصمت، فصمت اللحظة أبلغ و أفصح من كل كلام.

سأبقى صامتا و لن أفكر في مخلوق غيرك أيتها الأم.

أن تعمل

هل من الضروري كتابة هذه الأسطر؟ هل في البوح راحة و خلاص و تفريغ للآلام ؟ ما الذي يستحق الحكي في هذه القصة ؟

قضيت زهرة شبابي في التركيز على عملي ، حيث كنت أعمل بين ١٠ و ١٣ ساعة في اليوم الواحد، و أحيانا لمدة أسبوع كامل... و نجم عن ذلك نتائج مشرفة في العمل، و إحساس شخصي بالرضا و الفخر و حلاوة التحدي و الانجاز، أما على المستوى الصحي فحدث و لا حرج : التوتر و ضغط الدم و آلام مزمنة في المفاصل و الظهر، لكن لا يهم، فأنا أبلغ من العمر ٦٣ سنة، و رغم أن الأعمار بيد الله، فلن أعيش أكثر مما عشت...

و طوال مدة خدمتي - لأني الآن متقاعد منذ ٣ سنوات - انتقلت للعمل في مدن كثيرة، في إطار مهامي التفتيشية، و كنت أعتقد جراء ذلك أني قسوت على زوجتي و أبنائي بهذا الترحال الدائم، غير أن العكس كان هو الصحيح ، فقد نتج عن ذلك على مستوى أسرتي الصغيرة عشق للتغيير، و انفتاح في الذهن، و اكتشاف لعدد لا بأس به من الثقافات المحلية، و عدم تقوقع أو ارتباط قبلي أو عصبي بمدينة أو جهة أو لهجة أو لكنة ما.

لقد كانت حياتنا مليئة بالسفر و التجديد، و أطلق علينا الجيران بكثير من الفكاهة لقب "عائلة ابن بطوطة"، و لم يكن التنقل الدائم متاحا - حسب علمي

و شهادات أبنائي - لأغلب الأشخاص و الأسر التي كانت تربطنا بهم علاقات المودة و الصداقة.

و كان هدفي من العمل التفاني في أداء الواجب المهني، و التميز على الأتراب، و أيضا، و ربما هذا هو الأهم، تدارك و تغطية المردود الضعيف لأغلب العاملين معي في نفس الإدارة.

و لست أقول هذا من باب الادعاء أو التبجح أو تعظيم الذات، و لكنه الواقع بعينه، فهل كنت بإفراطي في العمل و سد ثغرات الآخرين من غير أن يطلب مني ذلك، هل كنت عادلا ؟ هل كنت ظالما في حق نفسي ؟ ألم أكن مجرد كبش فداء ؟

إن هذه الأحداث التي أنا الآن بصدد استنطاقها تعود إلى بداية تسعينيات القرن الماضي، و المؤسسة وزارة من إحدى الوزارات، و المكان مدينة من مدن الشمال. و أنا بكتابتي لهذه السطور لا أروم شيئا غير شهادة على تاريخ مضى و تذكر لأحداث ما زالت تبعاتها علي موجودة لحدود الساعة.

كنت أحاول دائما البرهنة على وجودي في الوزارة بالعمل الجاد و المتواصل، وكنت أقبل من غير تفكير المهام التي تستدعي السفر،لأن ذلك من شأنه أن يخلق لدى المدير انطباعا حسنا حولي، كما من شأنه أن يجعل كبار المسؤولين في الوزارة يفهمون أني مخلص في عملي، وهذا ما غرسه والدي - عليه رحمة الله- في صميم شخصيتي : الإخلاص.

أحلام و نهاية الأحلام

هل انعدم الإخلاص في هذا الوطن ؟ لماذا مات الضمير المهني لدى الكثيرين ؟ لماذا أصبح الهدف الرئيس من العمل لدى العامة أجر دائم و لو قليل ، ترقية فورية دون استحقاق و مجهود ، سهولة في كل شيء، نقص في الإبداع ، و أداء يتسم بنقص في الحيوية و الروتين ؟

لقد التحقت منذ عشرين سنة بالرفيق الأعلى، لكنك حي ترزق في ذاكرتي الوفية لك، و في فؤادي الذي ينبض دوما بحبك.

أنظر يا أبي إلى ألوف مؤلفة من الموظفين تبدأ صباح كل يوم عملها متأخرة ساعة أو ساعتين، و تنهيه باكرا مثل ذلك : ساعة أو ساعتين قبل نهاية الدوام.

أنظر إلى غش الكثيرين، أنظر إلى التملص من المسؤولية، و الكسل في العمل، و إهدار الوقت، و احتقار المواطن، و الاعتداد الفارغ بالذات، و حب التسلط و التملك، و التملق، و التزلف، و الانتهازية، و خدمة المصالح الشخصية، و ترسيخ ثقافة الجهل، و عبادة المال و الجاه و زيف المظاهر.

هل نعيش في بلد دينه الإسلام يا أبي ؟ هل نحن بلد إسلامي ؟؟؟

أسطورة الحب

الحياة أطوار و محطات و سعي إلى المجهول، و عناق مرغوب أو غير مرغوب بأناس يغير اللقاء بهم مجرى القدر، و يسقط بفضلهم على الوجود، في أسعد الفرص، جميل المعاني، و رائع الأحاسيس، و تعرفي على زهراء منذ ثلاث سنوات خلت ، كان أروع حدث عشته، و أعيشه، و سأعيشه في حياتي كلها.

دعوني يا سادتي الأجلاء، أتذكر، و اكتب صفحات مشرقة عن امرأة أكثر من رائعة عاطفيا، و روحيا، و ذهنيا، بل على كل المستويات، و لست أبالغ، بل أتكلم بالعاطفة، و أصيخ السمع بكل رهافة حس لنبضات قلبي...

انه الحب المتجسد، بشحمه، و لحمه، و الإلهام اليومي، و لوحة فنية لا ينقطع سحرها و تأثيرها على الحواس.

قرة عيني في الكتابة، سأكتب... و جميل الذكريات وطني، ان زادي من الكلمات لا ينفذ...

منذ نعومة أظافري و أنا أعشق أغاني عمرو دياب و ابحث عن الحب من خلال سماعي الموصول لذي الأغاني، منذ أزيد من ١٥ سنه. نعم، لست أبالغ، ١٥ سنة، و ربما أكثر...

ناري نار والحنين فى القلب نار

ناري نار والبعاد والشوق مرار

ياحبيبة والله زينة دى العيون

ياحبيبة عمرى علشانك يهون

حتى قلبى بيناديكى ليل نهار

أحلام و نهاية الأحلام

حبك يشعلني...

الآن، و هنا...

أحس أن أوصالي مفككة. أنظر إلى البحر أمامي ساكنا إلا من تموجات خفيفة. يستمر احساسي بالتفكك و الانفصال عن الواقع. أفكار شتى تغلي في دواخلي. وحدة، و تشرذم، و تسكع بين آلاف الأفكار.

بعيدا عنك يا حبيبتي، مريض أنا و جبال الأسى تدك قلبي فيصير فتاتا. أي نعم، أنا مريض، و لا شفاء لي إلا لقياك. هنا، في مقهاي المطلة على البحر، أجلس وحدي متأملا زرقة اليم العظيم تتوحد بزرقة الأفق.

أكره الأشياء، كل الأشياء من حولي، و أحن اليك، فمتى أعود إليك ؟ بت موقنا أني أدمنت هواك، و أن قدرينا يركضان في الخط نفسه، و انهما حتما سيصلان إلى نقطة واحدة، طال الزمان أو قصر، و أنهما قد افرغا في قالب واحد، فإذا هما متشابهان، متطابقان، يحملان الملامح ذاتها...

شوارع المدينه مقفرة و هي تغريني بالتسكع. منظرها الكئيب امتداد طبيعي لإحساسي بالسأم. تغمرني روية الشوارع الباردة الفارغة من البشر بانشراح لم يستمر طويلا، و تشحن رأسي بسيل من الخيالات...

دعيني اكتب، و اكتب، فالكتابة شفاء و ارتقاء و احتراق... اني أتذكر، و أتذكر، و أذوب بين نيران الذكريات...

قلبى خادنى وراح بعيد

واتولدلك من جديد

كل كلمة قلتها أنا عشتها

رددتها وفضلت أعيد...

ياحبيبة والله زينة دى العيون

أحلام و نهاية الأحلام

ياحبيبة عمرى علشانك يهون

الحب بدأ بترتيب إلهي، و اخترقت سهامه شغاف قلبي، فصرت أدمن هواك، و ليل نهار أموت كي ألقاك. بسمات و كلمات نتبادلها في الصباح و المساء، جمال و سحر يسربل غزالة حبيبها، و زهراء عاشقها، أنا ذا العاشق، و هو أنا، و سأظل ما حييت. أنت مولود جديد شملك سلطان الحب بهالة كلها قداسة و جمال، لم ار في الدنيا أبها منها و لا أروع...

لم أعد أصير خلقا آخر حين أمسك بين أناملي قلما و أعكف على الكتابة فحسب، و لكن دماء جديدة تجري في عروقي، كلما نظرت إليك، و تلذذت بتفحص وجهك و مرايا عينيك، فاذا بي قد حزمت غربتي في حقيبة جلدية، و شيعتها إلى مثواها الأخير، و إذا بي أتم جمالا و جلالا. وكلما تلاقت عينانا ولدت من ذا اللقاء ابدية، و ملائكة، و أمل، و ألم، و عشق حد الحلول، و فوق الفناء.

قدرنا، يا زهرائي، أن نرى المستقبل فجرا عذبا ورديا يولد من رحم الضياء، و أن نسافر معا، يدا في يد، بين بساتين الأحلام فنلقط ما طاب و لذ من أمنيات، نخزنها في ذهننا، صورا للحب الصافي و الدائم...

أحسني وحيدا، وحيدا جدا. و يتعمق هذا الإحساس يوما بعد يوم. تنتابني نوبات حزن لا أخزنها بين طيات القلب، لكني اتركها تتألق على سجلاتي قصائدا، و صورا و سيل أشعار. اقفل باب غرفتي بالمفتاح، و انطوي على الأسرار.

السماء رماد و بكاء و حنين إلى زمن لم يخلق بعد، لكني حققت فيه كل الأحلام. أما تلك الشجرة العارية الواقفة في ناصية الشارع، فهي ذاتي الضائعة، و اغترابي بين الأغراب. الزمن لا يمر، و الصمت غول رهيب، و احساسي بالوحدة يوسف المنسي المرمي في غيابات الجب...

حـزن زئبقـي يعصـر قلبـي و أنـت تشـيعينني إلـى المطـار. لـم أسـتطع أن أخمـد جحـيم مشـاعري، فـتجهم و جهـي و غـدا أشـد اكفهـرارا مـن سـماء ذاك اليـوم. مطر، و صقيع، و برد، إن قلبي ينوء بأكثر من ذاك.

و أنـا اتوجـه إلـى قاعـة الاركـاب، ينخلـع قلبـي مـن مكانـه، و أحـس بالغثيـان. لوعـة الحـب، بـل روعـة أن أحبـك أكثـر مـن الحـب ذاتـه، فهـل أحسسـت يومـذاك بلوعـة / روعة حبنا بين الحضور و الغياب ؟

و أنـا أشـيعك فـي المطـار، قاصـدا بـلاد الآداب، و اللباقـة، و العطـور، و الأناقـة، و الحضــارة، و الغربــة بعيــدا عنــك، كنــت أحكــم علــى قلبــي بالغيــاب شــهرين كـاملين ، لـم أذق خلالهمـا سـوى ألـوان مـن القلـق و التمـزق. و اذكـر أنـه كانـت تنتـابني أحاسـيس الـدمار، و تنهـال علـي مـن كـل صـوب الأفكـار السـوداء، و أنـي أفـرغ مـن الـداخل و الخـارج، فـلا وجـود لـذاتي، بـل هـي مغيبـة مسـرحة مـن قيـود الزمكان، و هي كقلبي محكوم عليها بالغياب.

سبت فراغ كبير
عندي والله حبيبي حبيبي
وانت هناك بعيد
مش بعيد عني حبيبي
قولي ازاي اعيش ؟

و حكيـت لـي فيمـا بعـد أنـك كنـت علـى شـاكلتي، و عـدت يومـذاك إلـى البيـت جافـة الحلـق، تمـوتين مـن الحـزن و العيـاء. حتـى نكـاتي و أحـاديثي الطازجـة المـلأى بالفكاهــة، و التــي طالمــا اســتمتعت باســتذكارها، وحيــدة أو بمعيتــي، لــم تعــد

تغمرك بالسرور، فهرك الجميل، الذي هو أنا، حاضر في القلب، لكنه بعيد عن العين.
متى أعود إليك، يا هرتي الحسناء، متى ؟

كل يوم بقول امتى ترجع ليا امتى ؟
صعبه اوي الحياة صعبه
من غيرنا انا وانت
قولي ازاي اعيش...

بعد شهرين / قرنين، أعود، و أحضنك إلى صدري، و اطبع على جبينك، و خديك قبلات حبيب و زوج عاشق...
سأعود إليك، مثلما ذهبت، إلى الضفة الأخرى، ممتلئا بطيفك و صوتك و حضورك الآسر، و انثر بين يديك حزمة من النجوم. و ساعة اللقاء تبثك عيناي أجمل الأحاسيس.
ساعة اللقاء، يا زهرائي، أحكي لك بكل لغات الكون، قصة الشعر، و الحب، و الغربة، يا من تفوقين كل الأوصاف، فأنت إلهام، و ريشة كتابة، و دواة أفكار، و موطن الأمل، و الألم، و الجمال...
يا الهي ! إني احترق في طهرك المقدس الملتهب بنيران ابدية. كل ومضة من عينيك تسبح في النور و تحفر داخل حنايا ذاكرتي هويتي الشخصية...
سأرتعش أمام عينيك في براءتهما و حقيقتهما الأولى، و أسلم روحي لشلال من الضوء المتدفق. سألبي بحواسي الخمس نداءات الحياة، و أحبك الآن و أبدا سعيا للاكتمال و الخلود. الحب نهر فياض، و أنا أعشق حد الجنون حورية النهر، و انغمس بكياني كله في عمق اللحظة.

أحلام و نهاية الأحلام

أحب، إذا أنا موجود، أهواك، اذا أنا انسان.

مهما أقولك قلبى داب

وان فى بعادك عذاب

يا حبيبتي اشتقتلك وندهتلك

وبعتلك قلبى ف جواب

حبك خمر فردوسية، و بغيره، أنا يتيم، و وحيد، و غريب في عالم غريب... بغيرك الساعة ساعات، و الزمكان وحدة و ألم و توال لمشاهد رمادية، و مئات المرايا و آلاف المكررات. أنت هناك، و أنا هنا، بارد قلبي، و عناكب تعشش في السقف.

الشباك مفتوح على مصراعيه، و السماء رصاص، و المدى تساؤلات.

متى أراك، متى ؟

لن اتحدث عن الكرسي الفارغ، و عن مكتبي الحزين المسربل بين الغبار و أكوام الأوراق الممزقة، و لا عن الصمت المخيف، و لا عن نظرة عيني التي أصبحت شاردة، خابية، و هي ترنو إلى الأفق، فتقتبس من ثناياه مسحة الغروب.

سأظل صامتا مدثرا برداء الحزن، فالحزن أسماء ما في الحياة...

سأدع السلام يغسلني، و اشيد لي قصرا، هو الفكر و القلم و القصائد و رماد الاحتراق...

بالحب اسمو، بالحب استعيد ذاتي، أصير نسرا يحلق في الأعالي.

لا يكفيني أن أحبك هكذا الآن و غدا، أريدك لي فوق الزمكان، و للأبد، و خارج المطلق.

أحلام و نهاية الأحلام

يضطرم فـؤادي كلما تلاقت عيوننا و تصارحت و تهامست بسيل من الاعترافات. و أنظر إليك طويلا. أسبح في ملكوت عينيك كما يونس في بطن الحوت...

سبحان من خلق الرقة، و رشها بماء الورد، و البسها العمق و الطهر و الخلود. أنعم النظر إلى وجهك، و اهتم بشتى أمورك و تفاصيل كلامك. عسل، و ألفة، و أحلى ما سمعت أذناي : ذا كلامك يا زهراء روحي، يا بلسم الجراح.

و كلما اعتكفت في محراب خلوتي الأثيرة، و اطلقت لأفكاري العنان، رحت أستعيد لحظات كلها حب و روعة، و أنمق عوالم خيالي بصور شتى منك، فأنت سلطانة الأفكار، و سيدة الأقمار، و منبع لا ينضب للخيال، و باقة ورد، و جنة ازهار.

ذكريات كتير

بتقابلني معاك يوماتي

بتفكرني بيك

وبسنين حلوة في حياتي

قولي ازاي اعيش...

هل الزمن تجمد ام أني أحلم ؟ أين الواقع من الحلم و ما الحدود بين ذا و ذاك ؟ عالم أثيري يشملني من الرأس إلى القدم، كل الكائنات تنصهر في العدم، كل شيء يمحي، و يندثر، و يمتد في اللانهاية، بين لهيب و نشيد و عشق بلا أول و لا آخر.

كل لحظة معك تنفلت من كل المقاييس، تخرج عن التصنيف، و تلبس أثواب البوهيمية. أحاديث عاشقين، و زمن بلا قيد، و عيون ملأى بألف و ألف تعبير. و أسبح في ملكوت عينيك بكل اللغات...

أنظر إليك، و تنظرين إلي. شيء لا يقاوم في نظرة عينيك. نداء ملح للغوص في سحر المجهول. أنا و أنت جسد و روح و قلب واحد، و نبضات على إيقاع كله خلود. ينتظم نفسينا نفس واحد.

أنا و أنت لحن سيمفوني في ذروة البهاء. جلال و جمال و توقف الزمن عن السير منتشيا بسكون اللحظة. الزمن خارج الزمن، إنه يمتد في سعة لانهائية، و يغدق الخير كله، على الكائنات.

ضعي يدك في يدي. لنسافر معا، نحن الاثنين، بلا وجهة، خارج حدود البدء و الختام. العالم صار أرحب، و النجوم في صفحة السماء لمعان لا ينتهي. اصبحنا خفيفين بلا وزن، و قانون الجاذبية رميناه في سلة المهملات.

نمشي يدا في يد، نرنو إلى الأفق البعيد، حيث جنة الأحلام. يدوم المشي ساعات و أياما و سنوات دون أن نكل أو نمل. نجلس بين فينة و أخرى على بسط من السحاب، و إذا ما انهكنا الجوع أكلنا منه ما يعيننا على طي المسافات.

سحاب/خبز طاهر و حبي لك أطهر زهرائي، يا زهرة الفؤاد...

ياحبيبة والله زينة دى العيون

ياحبيبة عمرى علشانك يهون

تضغطين بيدك على يدي، و مثلك أفعل، و نمشي متلاحمين في عناية القدر. بصرنا شاخص إلى جبل عتيد يناطح رأسه عنان السماء. نسير، و نسير، و نحث الخطى و نصعد إلى ذروة الجبل. الجبل شاهد على روعة حبنا، و يشتعل كالبرق، و يضيء العالم من الاشتعال.

أحلام و نهاية الأحلام

تولد في السماء أفراح و اقداس و نجوم لا تحصى. تعزف الموسيقى، هنا و هناك، و قريبا و بعيدا، و الآن و دائما و أبدا، و يبدأ الاحتفال.

ضوء النهار عذب، طفولة لا تشيخ، حلم ليلة صيف، و المغيب يرفض أن يحل. الدنيا مضمخة بالعطر، و نسمة رطبة تنشر الارتياح.

كل ذرات الكون تذوب، و تذوب...

موجة حنين، و بحار حب بلا حدود... كلها وديعة تتهامس بنيران السحر الأبدي. كلها تبارك الاشتعال المقدس المنصهر في نيران الخلود.

كنا اثنين و اصبحنا بقوة التلاقي واحدا، و مصيرنا أن نمشي في طريق واحد.

ذبت فيك، و منذ قرون و أنا ابحث عنك، و ها أنذا اليوم أسألك : أين أنا فيك و منك ؟ هل أنت أنا، و هل أنا أنت ؟

لحم بالسفرجل

يخطر لها أحيانا أن راحة الانسان الحقيقية لا توجد إلا في البوح و كتابة الاعترافات. هذا، رغم أنه مر عامان كاملان دون أن تكتب حرفا واحدا مما تريد أن تعبر عنه. أ في الكتابة راحة الانسان ؟ إنه مجرد خاطر يهدهد القلب إذا أفاضت الآلام كأس الأحزان...

خاطر لا وزن له في حياة كل يوم. حلم يقظة، سحابة صيف...

و هل نجح الكتاب يوما في حل مشاكل العالم ؟؟؟

أي فرح يمكن أن تجود به الأيام ؟ أي أمل يبقى بعد عناء كل هذه السنين ؟

إنها العمود الفقري لهذا البيت، و قلبه النابض، وترمومتره، و أساسه المتين، فهي أول من يستفيق و آخر من يسلم للكرى أجفانه، و أكثر من يحنو على الأبناء، و يشاركهم الفرح و الألم و الحلم بغد أفضل، و لكن رغم كل التضحيات، ما زالت و ستبقى دائما و أبدا تحس أنها كائن يحيا على الهامش.

هاجر الأبناء كلهم، مراد وسلوى و سعيدة و أحلام، إلى ألمانيا و فرنسا و كندا و أمريكا، و لم يبق في البيت سواها، و زوج كثير النقار صعب المزاج سيؤه، و جهاز تلفاز متواتر الضوضاء، وسمكة ملونة سابحة في حوض رابض على طاولة الصالون، و ببغاء غريب الأطوار ثقيل الحركة قليل الكلام.

العمر يتقدم بها، و يشهد على ذلك التجاعيد التي بدأت تحفر لها أخاديد عميقة في الوجه و اليدين، وما تتراشق به مع زوجها من عتاب عميق الجذور، يتخفى حينا خلف الصمت، و أحيانا أخرى في ثنايا اللامبالاة أو لواذع الكلم.

متى يفهم الزوج و أب المهاجرين أن الحياة لا تنتهي في الستين ؟ متى يفهم أن نهاية الحياة المهنية ليس معناه أن يقبع في البيت، و يفكر في الموت، و

يكف عن الحركة، و يغرق في الكآبة، و ينهال على الغير بوابل من النقد، و يقفز اليوم بكامله بين قنوات الساتل وراء الأخبار السوداء بما فيها فساد المجتمع، ونفاق كثير من المسؤولين، والحرب على غزة و القلاقل في العالم العربي، و فتنة الدواعش، و وباء الايبولا، و جرائم الشواذ، و هلم جرا... ؟

وهي بالمقابل لها من العيوب و السلبيات ما يملأ صفحات كتاب كامل، و لكنها إن لم تمارس الرياضة فهي تمشي كل يوم ساعة أو ساعتين، و إن لم تهتم كثيرا بالسياسة و تلقف الأخبار في التلفاز فإنها مواظبة على دروس الدين و التنمية البشرية، و إن لم تفكر كثيرا في الموت فهي حريصة قدر الإمكان على نظام غذائي متوازن يقيها بعضا من أمراض الشيخوخة الشائعة.

الزمن يقتلع المسافات كما الريح العاتي يقتلع أوراق الشجر، و وجوه عزيزة على القلب غيبها الموت، أو المرض، أو البعد، أو كل ذا و ذاك. و لكن هل يهم شيء ؟ دعونا من الماضي و لنستسلم لسطوة الحاضر. لكن... من منا يستطيع أن ينفلت من الماضي، و ذاكرته الحبلى بالقصص و الأحداث و المشاهد ؟

في الخامسة و الخمسين، قوية البنيان، قليلة الشكوى، صبورة، بيضاء القلب، صافية السريرة، حلوة المعشر، في عينيها نور و نصاعة و طفولة و شجن و شطآن حنان...

لا تفتح فمها لتحتج أو لتصخب أو لتصرخ في وجه أحد، لا يهمها أن ترتاح، و لكنها حريصة على التفاني و على أن تظل الشمعة التي تنير الآخرين باحتراق الذات و الذوبان في نهر العطاء...

عندما كانت في الخامسة من عمرها، أرسلتها أمها لإيصال الحلوى إلى الجيران في الضفة الأخرى من الوادي، و لأنها عبرت الشارع المصطفق

بالسيارات و الشاحنات المهرولة في كل اتجاه دون أن تنتبه لاشارة المرور، أو تسلك ممر الراجلين، فقد دهستها سيارة مجنونة و كسرت في الحال ساقها اليمنى، فرفعت عقيرتها صائحة : "لا أريد أن أذهب للمستشفى"، و أغمي عليها، و لسوء حظها، أفاقت بعد ساعة على وجوه الممرضين، و هي ممددة، ملفوف ساقها في الجبس، بغير قدرة على الحراك.

و لكم ينتابها الضحك، و هي تتذكر اليوم، في عيد ميلادها الخامس و الخمسين، أنها حين كانت راقدة في المستشفى قبل خمسين عاما مضت، كان الراديو يصدح بأغنية "آش داني، علاش مشيت؟ "، و لبراءتها خيل إليها أنها موضوع الأغنية.

" لماذا حملت طبق الحلوى للجيران ؟ لم كان مصيري حادثة السير في ذلك اليوم الذي لا ينسى ؟ كيف ألقيت بيدي إلى التهلكة ؟ لماذا لم أرفض الخروج من البيت يومذاك ؟ "

و كانت أيام المستشفى طويلة، و خالتها شهورا عديدة، و لكنها في الواقع لم تزد على أسابيع ثلاثة. و ها هو ذا أبوها يسألها بحنان يوم خروجها من المستشفى :

- الحمد لله على سلامتك، ماذا تريدين أن تطبخ أمك للغداء اليوم ؟

- اللحم بالسفرجل.

- لحم بالسفرجل ؟ فقط ؟ متأكدة ؟ انها أكلة عادية... لا تريدين بسطيلة أو دجاجا محمرا بالليمون و الزيتون ؟؟

- لحيمة بالسفرجل و صافي...

لست إرهابيا و لست "شارلي"

يناير ٢٠١٥ ، المكان : باريس ، الحادية عشرة و النصف صباحا... مقر مجلة ساخرة... ها هي ذي فرنسا تهتز على وقع حادث شارلي ايبدو الذي خلف قتل ١٢ شخصا بينهم صحافيون و رسامو كاريكاتير ، و ها هو ذا الرأي العام العالمي يتفاعل مع الحادث بين متضامن و متجاهل.

ها هي ذي عبارة " أنا شارلي" تنتشر كالنار في الهشيم، في أهم مواقع التواصل الاجتماعي، و بين هذا و ذاك يحق لنا أن نتساءل : ما هي القراءة الموضوعية لحادث شارلي ايبدو ؟ أين يبدأ الإرهاب و أين تنتهي حرية التعبير ؟ هل يعني الدفاع عن الإسلام القتل بدم بارد و الترويع و الإساءة لأهم الأديان على وجه المعمور ؟ هل حرية الصحافة مرادفة لسب الأديان و محاربة الرموز و المقدسات و السخرية من الأنبياء ؟

كغيري من الملايين على وجه الأرض تأثرت لما حدث قبل أيام، و خامرتني عواطف و آلام و أشجان، و خصوصا حزمة من التساؤلات. و أنا أكتب هذه السطور، اسمحوا لي أن أصيح بأعلى صوت : لست إرهابيا، و لن أكون كذلك، و في الآن نفسه لست شارلي، رغم أني متضامن مع عائلات ضحايا هذا الحادث. لست إرهابيا، لأن هناك مليون طريقة للدفاع عن الإسلام و تشريف الحبيب محمد، صلى الله عليه و سلم، غير القتل، و زرع بذور الكراهية، و تشويه صورة الإسلام، دين الحب و السلام.

بالعلم و العمل الجاد و التحلي بالخلق الحسن و الاندماج مع تقاليد و ثقافة الآخر، التي لا تعني بأي حال من الأحوال، أن تفقد هويتك العميقة و ثوابتك،

تستطيع أيها المسلم، أينما كنت، في فرنسا، في سائر بلدان أوروبا، في أمريكا، بل في كل مكان... تستطيع أن تكون قدوة حضارية لغيرك من البشر.
العنف سلاح الضعفاء و ذريعة الجبناء. تذكر معي حدثا تاريخيا في غاية الأهمية : عندما دخل محمد صلى الله عليه و سلم مكة فاتحا منتصرا كيف تعامل مع كفار و مشركي قريش الذين بالغوا في إيذائه و شتمه بل و حاولوا قتله مرات و مرات... كيف تعامل معهم؟ قال لهم : اذهبوا فأنتم الطلقاء...
إني أخشى أن تتحول فرنسا إلى أندلس جديدة، يضيق فيها على المسلمين أو يطردون لذنب اقترفه أشخاص لا يمثلون أي دين، فالإرهاب لا دين له... و لذا فأنا لست شارلي، لأني أعتقد يا فرنسا أن الحل الجذري لحادث شارلي ايبدو ليس أن تفرضي على الرأي العام من خلال وسائل الإعلام، أن يكون إما صديقا لك أي لشارلي، أو معاديا أي عكس ذلك.
انك بمنطق أسود أو أبيض تلغين حرية الاختيار، فالصواب و عين الحق أيها الإنسان، أينما كنت، و مهما كانت عقيدتك، أن تناهض جميع أشكال الظلم و العنف و الإرهاب و القتل، ليس في فرنسا وحدها أو باقي البلدان المتقدمة، بل في كل شبر من الأرض : فلسطين، العراق، سوريا، أفغانستان، أصقاع آسيا و أفريقيا، و اللائحة طويلة...
في زمن الانترنت، في زمن الفيديوهات اليوتيوبية و التغطية المباشرة للحدث صوتا و صورة، بالدقيقة و الثانية، في زمن التطور التكنولوجي الهائل و الوسائط المتعددة، يجب أن لا نكون سذجا و مغفلين، يتعين علينا بقوة و بحزم أن نطرح على أنفسنا الأسئلة التالية : حادث شارلي ايبدو هل حصل مائة بالمائة كما تم نقله إلينا عبر القنوات الفضائية و الأنترنت ؟ ما الحدود بين ما قيل، و ما تم السكوت عنه، و ما تم تقديمه و تبديله و تسييسه و تغليفه ؟ ما هو

دور الإخراج الفني، ما هو دور المونتاج و الميكساج و الذاتية في مسرحة ما حدث ؟

إن الإعلام منذ وجد، لم يلعب فقط الأدوار الكلاسيكية المنوطة به : الإخبار و التربية و التثقيف و الترفيه، بل لعب و ما زال يلعب دورا خطيرا : التضليل. و عندما نتحدث عن التضليل، فإننا نتطرق دون أن نعي لعدة كلمات مرادفة له : تضخيم الأحداث، البناء الإيديولوجي، لعبة السياسة، الحكم و التحكم، القيادة، التأثير، التوجيه، صناعة الرأي العام، و هلم جرا...

لست من الذين يؤمنون بنظرية المؤامرة، غير أني يا فرنسا، أريدك أن تسمعي جيدا ما يلي : كفى من تحويل منابر الإعلام إلى فضاءات لمحاربة الأديان، و من ضمنها الإسلام طبعا، و ذلك باسم الحرية و الحداثة و العلمانية ! عندما يقتل الآلاف من البشر، لا يهمنا أن يكونوا مسلمين أو مسيحيين أو بلا دين، في فلسطين و العراق و سوريا و كثير من بلدان إفريقيا، بفعل صراع الجهالات أو الحروب الأهلية، فإنك يا فرنسا لا تحركين ساكنا، و بذلك تخونين أهم المبادئ التي قام عليها دستورك : الأخوة الإنسانية و محاربة الظلم.

أعيدي يا فرنسا النظر في مفهوم حرية الصحافة، لأن الحرية تنتهي عندما تمس كرامة و مشاعر الآخرين، و لأن رسولا عظيما مثل محمد صلى الله عليه و سلم، ليس من المقبول بتاتا أن ينقلب إلى رسم كاريكاتوري فج يتندر به خصوم الإسلام. إن محمدا ليس رسولا و رمزا للمسلمين فحسب، إنه رسول و معلم للبشرية جمعاء.

رسالة أخرى و أخيرة لك أيها المواطن الفرنسي البسيط : أرجوك، ابتعد عن الكليشهات و الأحكام الجاهزة و التعميم، و وضع المنتمين للإسلام أو بعض المدعين في سلة واحدة. إن خطاب محمد و عيسى و موسى عليهم أزكى

أحلام و نـهاية الأحلام

الصــلوات واحــد : الحــب. الإســلام ديــن الحــب و الســلام و التســامح و احتــرام الآخر، و الإرهاب موجود في كل زمان و مكان، فكن ذكيا و متبصرا.

لست إرهابيا، و لكني في الوقت نفسه، لست شارلي ايبدو.

نحبك يا محمد

لنجعل شعارنا في التعامل مع حادث شارلي ايبدو كلاما نقوله في حب الرسول، حديثا صادقا نابعا من القلب، في حب خير الورى، الهادي المهدي، ذي الخلق العظيم. لنجعل شعارنا جملة واحدة، لكنها ناطقة بملايين المعاني : "نحبك يا محمد". لنضع هذا الشعار أمامنا، أينما كنا، و نتخلق به، و لنبن حياتنا في ضوئه، فكلنا محمد. صلى الله عليه و سلم.

هناك أشياء يجب أن نفعلها حتى نبرهن بصدق عن حبنا للإسلام و تمسكنا بتعاليمه، فهذا الدين ليس عاطفة و دموعا و انكسارا فحسب، إنه دين التأسي بالرسول الكريم في جميع أخلاقه و معاملاته، إنه دين العلم و العمل و التفوق والانجاز و تجاوز سجن الأنا و الجد و المثابرة و الحزم و التحضر و عدم الرد على السفهاء و تحاشي الجهلاء، مصداقا لقوله تعالى : " و إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما ".

لنترك سنة الحبيب تدخل قلوبنا، و لا نقابل إساءة من شوهوا الرسول الكريم و سخروا منه في رسومهم، بالشتائم و رغبات الانتقام. إن سخرية شرذمة من العلمانيين أو الملاحدة بخاتم الأنبياء لموقف يزيد من قوة هذا الدين و عدد أتباعه فآخر الإحصاءات تفيد أنه في أروبا وحدها بلغ عدد المسلمين أزيد من ٤٥ مليونا، و أن الإسلام أسرع دين ينتشر بالقارة العجوز. إن الله ناصر دينه و لو كره المشركون.

إن خصوم الإسلام يحتالون و يستفزون و يمكرون، و الله خير الماكرين. صحيح أن كل مسلم غيور على حرمة دينه و رسوله سيتملكه الغضب من طعنات كثيرة توجه للمسلمين في قلوبهم. إذلال الفلسطينيين على يد إسرائيل،

وضع المسلمين في العراق و سوريا، تخلفهم عن ركب الحضارة و تخبط أكثر من نصفهم في الأمية و الجهل، و ها هو حادث شارلي ايبدو و تداعياته الإسلاموفوبية يزيد الطين بلة، فهل بلغ السيل الزبى ؟ هل أصبح المسلمون عالة على باقي الأمم ؟

حينما يسخر إنسان بإنسان ويستهزئ به، فإن هذا يعني أن فيه عيبا خارجا عن السياق المألوف في الحياة الطبيعية ، فالسخرية والاستهزاء موقف انفعالي يبنى على موقف فكري يجعل الساخر أو المستهزئ غير مقتنع بالشخص الذي يسخر منه وبالحيثية والظرف الخاص الذي يبدو به ذلك الشخص ، فقد يسخر الساخر من ملابس ذلك الإنسان إذا كانت خارج السياق المألوف، وقد يسخر من عضو من أعضائه الذي قد يبدو بشكل ناشز عن السياق المنظور في الإنسان الاعتيادي.

و إذا عدنا إلى جريدة شارلي ايبدو لوجدنا أن سخرية عدد من رساميها من الرسول، صلى الله عليه و سلم، لا ينبع من عيب في الرسول، حاشا و كلا، و إنما تمليه عدة اعتبارات : فهم خاطئ وأعوج لحرية التعبير، و حقد دفين على الإسلام، و رغبة شيطانية في استفزاز مشاعر ملايين المسلمين (و هو ما حصل بالفعل قبل أيام قليلة). زد على ذلك رغبة الصبيان الجبناء في جني المال و التكسب على حساب مهاجمة الرموز و الأنبياء، و ليس أي رمز يا سادتي الكرام، فمنذ سنوات و شارلي ايبدو تركز على محاربة الإسلام، فما هو الموقف السليم إزاء ما يحدث، أيها المسلم، أينما كنت، في فرنسا، ألمانيا، إيطاليا، أمريكا، المغرب، مصر... ؟

أينما كنت فأنا أدعوك إلى عدم الرد على الجاهلين و عدم الاكترات بالسفهاء، فالله متم نوره و لو كرهوا أجمعين.

أحلام و نهاية الأحلام

لنجعل شعارنا في مواجهة حادث شارلي ايبدو تأسيا بأخلاق الرسول، و تعريفا بخصال هذا العزيز الغالي، و شمائله و ذكائه و حلمه و صبره على الأذى و إيمانه العميق و المطلق بنصر الله و لو بعد حين. لنعرف بالحبيب المصطفى في بلاد الغرب، في المنتديات و الملتقيات و الندوات، و في مجالس العلم، و على صفحات الانترنت.

لنجعل شعارنا جملة واحدة، لكنها ناطقة بملايين المعاني : "نحبك يا محمد". لنضع هذا الشعار أمامنا، أينما كنا، و نتخلق به، و لنبن حياتنا في ضوئه، فكلنا محمد.

كيف نحب الوطن ؟

عندما كنا صغارا، درسونا في الابتدائي بكثير من الإلحاح و التكرار البيداغوجي أن حب الوطن من الإيمان. و كنت، و هنا أتحدث عن نفسي، لا أعي عمق هذه الكلمات النبوية الخالدة، و يبقى فهمي لها محصورا محدودا في يفاعة سني و قصور نظرتي للحياة.

و مرت السنوات، و غادرت المغرب للدراسة، في سن الثامنة عشرة، و طال بي المقام في الضفة الأخرى للمتوسط، و عندما ابتعدت عنك أيها الوطن، بدأت أعي ماهية الحب، بل صرت أحبك بعنف، و كنت بعيدا عن العين، حاضرا بقوة خرافية في القلب. في صميم القلب...

أنا واحد من الأشخاص الذين يخفق قلبهم بخشوع كلما أبصرت العلم الوطني، بل كلما سمعت في الراديو أو شاهدت في التلفزيون بثا لمنبت الأحرار إلا و أحسست، يوما بعد يوم، و إلى حدود كتابة هذه السطور، و دائما، بحب الوطن و جلال الانتماء إليه.

لقد قضيت أزيد من ١١ سنة خارج تراب المغرب بين علم و عمل و أسفار و علاقات و صداقات و تجارب و مسرات و أحزان، بعيدا عن شمس الوطن و سمائه و أهازيجه و حكاياته و بره و بحره و ألوانه و عطوره و أناسه الكرماء الطيبين، و أجزم أني بت مدركا لأهمية أن تكون منتميا للوطن، و أن تعيش بين ذويك و في بيئتك، حتى تكون انسانا مكتملا مبدعا، ليس فقط على المستوى الهوياتي، بل أيضا العاطفي و الوجداني... لا أبالغ حين أضيف : و الروحاني أيضا.

أحلام و نهاية الأحلام

إذا كنت تحس بانتمائك الحقيقي لهذا الوطن، فلا شك أنك غيور عليه، حريص على مصالحه، و تقدمه، و نموه، و رقيه بين الأمم. أكيد أيضا أنك تخاف عليه و تتمنى له كل خير.

لا أشك في حسن نوايانا جميعا، لكن ماذا فعلنا من أجل المغرب ؟

هناك ملايين اللقطات من حياتنا اليومية تفصح عن نقيض ذلك.

إهدار للوقت ساعات و ساعات أمام التلفزيون أو على كراسي المقاهي، عدم احترام للمواعيد، أن تأتي متأخرا عن الموعد الفلاني و على شفتيك ابتسامة واسعة بدل كلمات أسف و اعتذار. اليابان، أمريكا، ألمانيا، انجلترا، و سائر بلدان العالم المتقدم... إن هناك أمما وشعوبا دربت نفسها و مواطنيها على استغلال كل دقيقة في العلم و العمل النافع و على اغتنام كل فرصة ممكنة لتحسين جودة الحياة، بينما نصر نحن في تعاملات كل يوم على تضييع الوقت، ماكثين بذلك خارج التاريخ.

التملص من تحمل المسؤولية و ثقافة الاستهتار...دائما الآخرون هم المسؤولون عن الفشل، دائما نحن بريئون من كل إخفاق، كل حادث يحصل، كل خطأ، كل سلوك متهور، كل حماقة، لسنا مسؤولين عن كل ذلك. بل الآخر، و بهذا أصبح للآخر دون أن نعي، ذلك المعنى العميق للجحيم كما وصفه سارتر : الجحيم هو الآخر. أين نحن من المسؤولية ؟ أين هي فردانيتنا، و شخصيتنا، و استقلاليتنا، و شيء موضوع داخل رأس كل واحد منا، و به أعظم ملكة وهبنا الخالق إياها : العقل.

عدم تثمين الإنسان. العنف و الصياح و السباب و الغضب و الاندفاع، أصبحت سلوكات شائعة في المعاملات، و عوضت في كثير من الأحيان الحوار الهادئ الرصين و التواصل السليم و الإصغاء و التريث و محاولة الفهم و الرغبة في العيش المشترك.

أحلام و نهاية الأحلام

الغش في كل عمل، في كل شيء. عدم الإتقان. التهرب من العمل و ثقافة الكسل بذريعة عدم العجلة، و الخمول القاتل المدمر للأعصاب بذريعة الهدوء و القناعة بالقليل، "بداك الشي لي قسم الله"، لأن العام طويل و العجلة من الشيطان.

عدم احترام العلم. كم منزلا زرته و وجدت في رفوف خزاناته الكتب و المجلات عوض الكؤوس و صحون الطاووس و بعض التحف ؟ أمة أقرا غالب أفرادها لا يقرؤون، و هي بعيدة سنوات ضوئية عن قيمة اسمها العلم. أليس المغني، و الفكاهي، و الراقصة، و الملياردير، أهم في مجتمعنا من العالم و الكاتب و المفكر ؟

أن تكون مقدرا لقيمة الوقت، مواطنا مسؤولا، محترما للآخر كيفما كان، نزيها متقنا لعملك، شغوفا بالعلم و التعلم الدائم، ذلك هو الحب الحقيقي للوطن.

أذكى شعب في العالم

المغاربة أذكى شعب في العالم...

وقع اختياري على هذه الجملة كي أستهل بها هذا النص، لأنها في اعتقادي الشخصي من أسوأ و أغبى ما سمعت. و هي مرادف لأقصى درجات النفاق و التمادي في الجهل و الكذب على الذات.

هل ذكاء بلد ما يستقيم و يكتمل دون أن يتوفر في شعبه و عقلياته و مؤسساته و بنياته أبسط و أدنى شروط السلامة و الرقي و الجودة ؟ و هي لعلمي غير موجودة بتاتا !

ما الذي يميز المغاربة فعلا عن باقي البلدان في العالم ؟ ما القيمة المضافة لهذا الشعب ؟ هل المغاربة مثلا شغوفون بالعمل مقبلون عليه بنشاط هائل مثل اليابانيين ؟ هل يحترمون الكتاب و يقدسون القراءة مثل الفرنسيين ؟ هل هم بارعون في إدارة الوقت محترمون للمواعيد مثل الألمان ؟ هل يعشقون المغامرات و التجديد مثل الأمريكيين ؟ هل لديهم انضباط و حياء و دماثة الاندونيسيين ؟ هل يجري الفن في دمائهم مثل الإيطاليين ؟

يا عباد الله بماذا يتميز المغاربة على وجه التحديد ؟

ما هي نقاط قوتهم و ما الذي يجعلهم يشعون بل يتوهجون على المستوى الدولي ؟

أحلام و نهاية الأحلام

أجزم أنه لا يوجد شخص واحد صادق مع نفسه يستطيع أن يذكر لي فضيلة واحدة تميز هذا الشعب المخطئ حتى الثمالة في تقييم نفسه و الذي يحيا يوما بعد يوم، على إيقاع الحداثة المزيفة، و التحديث السطحي، و دوامة الاستهلاك، و غياب الإنتاج، و الشح في الابتكار، و انهيار الأخلاق، و ضياع القيم، و فقدان الهوية و المكوث في التبعية.

الكسل و الاستهتار، الغش و الخداع، التهور و الاندفاع، الفوضى و التسيب، تلك هي صفاتنا الأصيلة، التي نخفيها كل يوم تحت ستائر الانفعال و الأكاذيب. و يا ليت هذه الأكاذيب توقفت عند هذا الحد، بل المحزن أنها تحولت إلى واقع معيش و عملة تبادلات لكل الأيام.

هناك ملايين من الأصوات تنادي : "العام طويل" ، "اللي زربوا ماتوا"، "مشى علي الحال"، "داز علي الطوبيس"، "جيت نصوبو و ما بغاش يتصوب"، "ماشي أنا لي طيحتو هو لي طاح بوحدو"، "ما بغاش يتفهم لي هاذ المشكل..". وهلم جرا...

أين نحن من المسؤولية و إدارة الوقت ؟

أنصت إلى هذه الأصوات الأخرى :

"حياتي قتلها الروتين"

" أنا بدين و جسمي منهك للغاية "

أحلام و نهاية الأحلام

" تعبت من هذا العمل و لا أستطيع في الوقت نفسه أن أغيره"

" أنا يائس و محبط فهذا الرجل جحيم لا يطاق و الحياة معه أصبحت مستحيلة"

"إنني لا أستطيع أن أحدث أي تغيير في حياتي المملة"

"أريد أن أجد حلا لمشاكلي في الشغل غير أني لا أعرف كيف، و من أين أبدا "

هذه العبارات، هذه الآهات هي أصوات مغاربة في العمل و في المنزل، أصوات الملايين ممن لم يبذلوا المجهود الكافي لإحداث التغيير، و الفهم العميق و المتأني للحياة، وهي أحيانا شكاوى لأشخاص لم يقتنعوا بضرورة جعل كل مرحلة في حياتهم بمذاق و طعم و لون مختلف، لأن الطبيعة في حد ذاتها قائمة على التغيير .

المغاربة أذكى شعب في العالم...

آه ! لو كان ذلك صحيحا، لكانت هذه السطور القليلة، و التي لك عزيزي القارئ كامل الحرية في الحكم على مبناها و معناها... لكانت سطورا لأجمل و أذكى نص في العالم...

انتظارات العام الجديد

لا تخدعنكم الأعوام و تقلب الشهور و الأيام، فالزمن واحد و ساحة حرب بين الخير و الشر، و مختبر لمعادن الناس، و توديع لماض فات و حاضر معيش و مستقبل أفضل. الزمن واحد و عجلته منذ بدء التكوين محك لتجارب البشر، بل للإنسانية جمعاء...

يقترب العام الجديد، فيحس كثير من الناس، و لعلي واحد منهم أننا مقبلون على مرحلة جديدة من حياتنا؛ قد تكون ملأى بالمفاجآت السارة، أو قد تكون كابوسا مرعبا يتخفى خلف ستائر الغيب. ٢٠١٤ ، هذا العام كسائر الأعوام، مر بسرعة البرق، بحلوه و مره، بشهده و علقمه، بليله و نهاره، مر عام من عمرنا، فماذا أعددنا للعام الجديد ؟ و هل يكفي أن ننتظر ٣١ ديسمبر من كل عام حتى نفكر في انجازات و إخفاقات و نجاحات و عثرات ٣٦٥ يوم مرت، هكذا، بسرعة مخيفة، أو ربما ببطء ينهك الأعصاب ؟

نحن على أعتاب ٢٠١٥ ، بل تفصلنا عنه ساعات قليلة، و عدد غفير من المغاربة و أنا واحد منهم، يتمنى لصديقه أو أخيه أو أمه أو أبيه أو زميله في العمل "بوناني" ، و لكن ماذا أعددنا لعام ٢٠١٥ ؟ و أين نحن من المضي قدما و دائما نحو الأفضل، نحو التحسين المستمر لجودة الحياة ؟

ليس حلول ٢٠١٥ أو غيره من الأعوام بالحدث الفريد، بل نحن من يستطيع أن يخلق التميز و الجدة إن أردنا، ليس مرة كل عام، بل كل شهر أو أسبوع أو يوم إن شئنا ذلك.

التميز ؟ الجديد ؟ النافع و المفيد ؟ كل ذلك ممكن...

أن نجعل من ذواتنا في كل مكان و زمان و مع من كان منارة لنشر الخير، أن نحب لغيرنا ما نحبه لأنفسنا، أن نكرس وقتنا و جهدنا لمساعدة أكبر و أقصى

عـدد ممكـن مـن النـاس، أن نقطـع عشـرات أو مئـات الكيلـومترات طلبـا للعلـم أو عيـادة لمـريض أو كفالـة ليتـيم أو لنشـر فكـرة بنـاءة خلاقـة، أن لا نـتلاعن فـي الطرقـات و نحـن نسـوق سـيارتنا بمنتهـى التهـور و الجنـون، أن لا نرمـي الأزبـال فـي الشـوارع و الطرقـات و لسـان حالنـا يقـول "مـا أوسـخ هـذا البلـد"، أن لا نشـهد الـزور و نـدلس الحقـائق و نغـش أنفسـنا و نكـذب علـى ذواتنـا و فـي دواخلنـا نـردد " و مـا العيـب فـي ذلـك، فالنـاس كلهـم يفعلـون مـا نفعـل، و لـن يسـتقيم يومـا حـال هـذا الـوطن"، أن لا نسـعى إلـى هـلاك المنـافس فـي العمـل لأن التنـافس الحقيقـي هـو تجـاوز الـذات و تحطـيم أغـلال أنانيتنـا، أن لا نبتسـم مـلء فمنـا للجـار و نصـفه فـي غيابـه بأبشـع العيـوب، أن نضـاعف سـاعات العمـل و الكـد، أن نسـهر ليلـة أو ليلتـين مـرة أو مـرتين كـل شـهر فـي مناجـاة للـروح مـع بارئهـا، أن تكـون حياتنـا إبداعا مستمرا، و أن تكون بكل ألوان الطيف.

أن لا نقضـــي الســـاعات الطـــوال أمـــام التلفزيـــون محملقـــين فـــاتحي العيـــون و الأفـواه لمسلسـل تركـي أو مصـري جنـى منتجـوه الملايـين مـن الـدولارات و جمهـوره الملايـين... لكـن مـن الأصـفار، أن لا ننفـق السـاعات الطـوال جالسـين فـي المقـاهي لا نفعـل شـيأ غيـر الثرثـرة و النميمـة، أن نتبـع نظامـا غـذائيا سـليما، و نمـارس مزيـدا مـن الرياضـة و الألعـاب، و أن يظـل الهـدف الأسـمى مـن الحيـاة العلـم و الـتعلم و الاكتشـاف و المغـامرة و ركـوب الأمـواج و عشـق الخـالق و العطــاء دون مقابــل و الحــب اللامشــروط ، أن لا نســرق وطننــا و مؤسســاتنا و إداراتنـا و شـركاتنا فـي أوقـات العمـل متـذرعين باسـتراحة الغـذاء و صـلاة الظهـر و زفـاف وهمـي لابـن الجيـران أو مـرض أكثـر وهميـة لصـاحب عرفـت عنـه المعافاة و صحة البدن.

التميـز ؟ الجديـد ؟ النـافع و المفيـد ؟ كـل ذلـك ممكـن... و تلـك هـي انتظـاراتي، و لعلها أيضا انتظاراتكم من ٢٠١٥. و كل عام و أنتم بألف خير.

المهاجر و البحر

أحب الإصغاء من الصغر. أحاديث الناس، قصصهم، أفراحهم، أتراحهم، أحلامهم و أوهامهم، كل ذلك كنت أصغي إليه و أدعه ينطبع في ذهني. و عندما كبرت و صارت الكتابة مهنتي مضيت أخط على الورق أبطالا و وقائع و مشاهد ليس كما حدثت بالتفصيل و لكن كما يحلو لي أن أشكلها حسب ما أريد أن أمرره من أفكار و رؤى و تأملات.

استمتعت كثيرا بصحبة فريد في آخر لقاء جمعنا في روج إي نوار المطل على البحر، و الذي هو ليس مقهى فحسب، بل موطن لأحاديثنا اللامنتهية و مربط لصداقة دامت سنوات.

روج إي نوار، روح البحر و رائحة المحار و سكون الأصداف و رذاذ الأمواج و المستراح و المتنفس و مغترف الأسرار و الخل الحميم و مولد آلاف الحوارات و الانفعالات و الصرخات. و لست أبالغ حين أقول أن فريد، كان يومذاك، في شتاء ذاك العام الدافئ، فياضا في الحديث كعادته، ملتهب العاطفة، قوي الحجة، بل و دافئا في تماه عجيب مع شتاء ٢٠٠٩ الذي أفعم بالود حواسنا و قلوبنا الشابة المجنونة بالحياة.

ما زلت أذكر كل كلمة جاد بها لسان فريد و تفتقت عن خياله الجامح، كأن الأمس هو اليوم، بل كأنك يا فريد حاضر معي في كل مكان، و ستبقى كذلك دائما أيها العزيز.

يقول فريد :

" بعد عودتي من مهجري بانجلترا مستهل العام الماضي، قررت أن أكرس كل وقتي و مجهودي لعملي في ميدان التعليم الخاص. و لم يقع اختياري بالصدفة على كازابلانكا، فأنا أصيل هذه المدينة، و هنا قبل أن أقرر العيش و الاستقرار، أجريت ما يربو على ١٥ مقابلة مع مشغلين و مديرين لمدارس عليا ذوي شخصيات شديدة التمايز، دون أن تختلف في خاصية مشتركة : الغموض المغلف بسوء الظن. غموض في كل شيء؛ فلا وضوح في أنواع العقود بين الدائم و الموسمي منها، و لا معلومة كافية عن الأجور المدفوعة و أنواع الشراكة و سبل الارتقاء و الفرق بين الرسمي و غير الرسمي من المهام.

كنت أخطط لعودتي إلى المغرب، في إقامتي اللندنية. و لم يكن عدد المقابلات التي أجريتها في سباق ماراثوني مع الزمن، أي في حدود شهر واحد، و في سباق جنوني مع نفسي...لم يكن هذا العدد محايدا أو غير دال بالنسبة لي ؛ فخمسة عشر عاما هي المدة التي قضيتها في انجلترا ، بين علم و تعلم و عمل و خبرة في مجال التسويق، بين أسفار و مؤتمرات دولية و أبحاث جامعية، و على إيقاع حياة لندنية، خيمت عليها ظلال من المشاق و الكآبة و البهجة أحيانا، و في أحايين كثيرة ظلال أخرى من البرد و الخواء و الفراغ المدمر رغم النجاح و التألق المهني و زوجة حنون و طفلين مرحين طاهرين كالملائكة مشاغبين كأدهى العفاريت. رغم كل شيء... رغم البحث اللامنتهي عن المعنى.

البحث عن المعنى ؟ هل وجدت في الوطن ما أبحث عنه ؟ إلى أي حد أنا ملزم بالجواب عن هذا السؤال ؟

كنت كل يوم، و أنا أمضي قدما في عملي الجديد كأستاذ في التسويق بإحدى المدارس العليا الخاصة بكازابلانكا، أندفع إلى اكتشاف ملامح هذا المجتمع الذي غبت عنه أزيد من ١٥ سنة، و شدني الحنين إلى الرجوع إليه، لأجده في أسوأ حال؛ أي نعم، أسوأ مما كان عليه حين غادرته و أنا لم أكمل بعد العشرين.

لا أحد يهتم بالتعلم أو العمل، مدارس و جامعات بلا مستقبل و بلا تخطيط و بلا أدنى قيمة علمية، ناهيك عن طلبة سيطر عليهم الخمول و فقدان الأهداف و الرغبة في النجاح بأقل مجهود. و كم من مرة وجدت نفسي عاجزا عن الاقتناع بطلبة همهم الوحيد أن يبرهنوا للأستاذ، أنه بحكم أنهم يدرسون في مدرسة خاصة فإن نجاحهم مضمون بقوة المال المدفوع.

و يوما بعد يوم، استطعت أن أنفذ إلى أعماق هذا البلد الذي بت ألخصه في جملة واحدة : الفراغ المبني على المظاهر و السطحية في كل شيء. كل ذلك و أنا حريص كل الحرص على تأدية عملي بتفان و إخلاص و على عدم الانزلاق إلى التعميم الشامل، لأن التعميم عمى و أقرب الطرق إلى الابتعاد عن الصواب و الجور في الحكم"

أحلام و نهاية الأحلام

فعلا، استمتعت كثيرا بصحبتك يا فريد في آخر لقاء جمعنا في روج إي نوار موطن أحاديثنا اللامنتهية، في آخر لقاء لنا بروح البحر و رائحة المحار و سكون الأصداف و رذاذ الأمواج و المستراح و المتنفس و مغترف الأسرار و الخل الحميم و مولد آلاف الحوارات و الانفعالات و الصرخات.

استمتعت، و لكني في الوقت نفسه حزين حتى الموت، لأنك حزمت حقائبك دون سابق إنذار و جندت أسرتك على أن تهاجر معك إلى بلد آخر يحترم العلم و يقدس العمل و التفوق.

فهل تغيب عنا دون رجعة ؟ و هل يكون هذا قرارك الأخير ؟

الحضانة ياما الحضانة

هذه شهادة لشخص أعرفه جيدا، أوردها و أرويها كاملة من غير زيادة أو نقصان، هدفي في ذلك أمانة النقل و وصف الأحداث الواردة في هذا النص بأكبر قدر من الموضوعية و الحياد.

يقول الراوي :

"- إن ابنتك في أمان تام، كن مرتاح البال، واعلم يا سيدي أن حضانتنا ذات سمعة أكثر من طيبة، فهي رغم وجودها في وسط الرباط، فإنها الملاذ الآمن للعديد من الرضع و الأطفال الصغار و مقصد العديد من الأمهات ، من تمارة، و سلا و تامسنا و الصخيرات. سمعتنا أكثر من ممتازة، فأبواب حضانتنا مفتوحة منذ سنوات عديدة. أؤكد لك أيضا، سيدي، أن أهم ما نسهر عليه، هو نظافة الأطفال و أمانهم و احترام القانون بحذافيره، فالمربيات هنا كلهن أمهات خبيرات".

هنا ينتهي كلام المديرة.

كيف لي أن أشك في مصداقية هذا الكلام و أنا أضع ابنتي في حضانة أوصاني بها أحد الأصدقاء المقربين، و هي لعلمكم، يا سادة، تقع في حي لا أريد أن اكشف عن هويته ؛ إنه حي الليمون. ها ها ها...

فقبل بضعة أشهر أي منذ أن وضعت ابنتي في الحضانة قالوا لي إن ابنتك لن يصيبها مكروه، و أنها واحدة من فلذات أكبادهم هناك، و أنه لا مجال للخوف، فكل شيء سيكون على ما يرام، رغم أن الأيام الأولى، ستكون أيام بكاء و ألم فراق و صعوبات اندماج بالنسبة للصغيرة، و بعد ذلك تتكيف مع بيئتها الجديدة، و تتعلم أشياء مفيدة منها كصحبة الأتراب و الإحساس بالمسؤولية و المبادرة و الاعتماد على الذات و الوعي بالوقت من خلال التجريب اليومي للعبة الذهاب و الإياب بين المنزل و الحضانة، وتعلم كلمات و سلوكيات جديدة.

و فعلا ذلك ما كان، و صدقتهن وقلت ما شاء الله على مربياتنا الفاضلات، فهن على الرغم من كونهن لا يتوفرن على أدنى دبلوم في التربية أو علم النفس،إلا أنهن لا يسهرن فقط على راحة صغيرتي و بقية الأطفال، بل يتكلمن معهم غالب الوقت بلسان فرنسي مبين، بهدف تأهيلهم منذ نعومة أظفارهم، لعالم دراسي و مهني يقوم على ثنائية بل تعدد اللغات.

و قلت في نفسي أن كل هذا جيد، رغم أني لا أتصور أن هناك أمريكيا أو يابانيا يحترم نفسه و يعتز بهويته، و يتحدث في الآن نفسه مع رضيعه أو طفله الصغير بلغة تواصل رئيسية غير اللغة الأم.

أعيد القول: كل ذاك مقبول و لعله جيد جدا، فأين المشكل ؟ أين مكمن الداء ؟

الجواب، يا أعزائي، بسيط وسهل.. فقبل أيام قليلة، بعد فراغي من العمل، ركبت سيارتي، و توجهت رأسا إلى الحضانة، لأستلم ابنتي، و أنا في حالة

من الانزعاج الشديد، فلقد كان خدها الأيسر مباشرة تحت مستوى العين تعلوه زرقة واضحة، و كانت الزرقة حسب جواب المربية عن سؤالي من أثر سقوط طفل على ابنتي أثناء فتره الاستراحة.

واصلت المربية شرح ما حدث، و همها الأساس الدفاع عن نفسها : " هذا ما حدث يا سيدي بالضبط. التقليد علي إلا كنت كنكدب عليك. هاد الشي لي وقع. و الله العظيم. أرجوك، إياك أن تخبر إدارة الحضانة بما حصل، فإن مصيري إن لم يكن التوبيخ الشديد، فأنه سيكون لا محالة الطرد المباشر، كما حصل مع مربيات سابقات. أرجوك..."

كنت كالمرجل، أغلي من الغضب، غير أني بذلت مجهودا خرافيا لأظل بارد الأحاسيس، سيما و أني أشفقت على المربية، و لم أرض لنفسي بأي حال من الأحوال أن أكون سببا في فقدانها لعملها.

و بعد ٢٤ ساعة أخرى، بالتمام و الكمال، عدت لاستلام بنيتي من الحضانة، لأجد نفسي أمام مفاجأة أخرى: انتفاخ كبير و زرقة مخيفة في جبينها الملائكي.

رباه ! ما الذي حصل من جديد، في هذه الحضانة الآمنة الرائعة التي تكلفني ما يزيد عن ١٣٠٠ درهم كل شهر، دون احتساب ما أحرقه من بنزين للسفر بين مكان العمل و المنزل و حضانة الصغيرة ؟

ما هذه المصيبة ؟؟؟

و كان يومذاك جواب المربية لا يختلف كثيرا عن جواب المرة الماضية : "هناك سر أود أن يظل بيني و بينك. لدينا هنا في الحضانة طفل لم يكمل بعد العامين و هو مصاب بداء التوحد، و هو المسؤول عما حدث لابنتك. في كل مرة، يمشي دون تركيز و يصطدم بالأطفال. هذا ما حدث يا سيدي بالضبط. التقليد علي إلا كنت كنكدب عليك. هاد الشي لي وقع. و الله العظيم. و زيدون أنا بنتك كتبغيني و عزيزة علي بزاف، أرجوك، إياك أن تخبر إدارة الحضانة بما حصل، فإن مصيري إن لم يكن التوبيخ الشديد، فانه سيكون لا محالة الطرد المباشر، كما حصل مع مربيات سابقات. أرجوك.."

يا للهول !! طفل مصاب بالتوحد، و يوضع هنا في الحضانة، دون رعاية خاصة ؟؟؟

هذا هو الجنون بعينه !

و هنا انفجرت في وجه المربية : "أجيبيني على الفور ! كم عدد المربيات و الأطفال في كل مستوى عمري و داخل كل غرفة (ذلك أن الحضانة مقسمة إلى فئات عمرية) ؟ و كم أجرك الشهري ؟ و هل لديك عقد عمل قانوني؟ و هل لديك تأمين ؟ هيا أجيبيني بسرعة !

و كان الجواب صادما، أكثر مما توقعت، و لعله كان صادما من كل حرف أو جملة سردتها في كل ما سلف من سطور هذا النص:

أحلام و نهاية الأحلام

" في المستوى العمري ٦-٢٤ شهرا لدينا ١٧ طفلا و أحيانا يصل العدد إلى ٢٢ طفل، و هناك فقط مربيتان لإدارة هذا الجيش الضخم من الصغار، أنا و زميلتي تلك. أما عن ظروف العمل، فلا عقد و لا تأمين و لا حقوق و لا عطل مدفوعة الأجر، و لا إنسانية في عملنا... تصور أني أشتغل من الصباح الباكر إلى نهاية المساء دون أن أجد الوقت للأكل أو لأخذ و لو قسط هين من الراحة يعينني قليلا على الصمود في عملي المرهق. تصور أيضا أن راتبي الشهري يتجاوز ٢٠٠٠ درهم ببضع دريهمات، و أني لأقل خطأ أو هفوة تبلغ بها الإدارة مهددة بالطرد، نعم بالطرد الفوري... وا شفتي آ سيدي فين حنا عايشين ؟؟؟"

لقد فهمت كل شيء... الأمر لا يحتمل الصمت ! و هذه الرمانة وجب لها أن تنفجر الآن، و أن تتطاير حباتها في كل الاتجاهات.

إن هذا لوضع مزر و صعب، بل شديد الصعوبة، فهل من مستمع ؟ هل من أذن صاغية ؟ هل من ضمير حي يستنكر؟ "

التسول بين التكاسل و التواكل

ما الذي يدفع شابا في نهاية العشرين أو مقتبل الثلاثين، حسن الهيئة و الهندام، سليم البدن معافاه، الى أن يمد يده إليك في موقف السيارات مستجديا منك بضعة دراهم، "في سبيل الله" ؟

لماذا يقبل أطفال دون الثانية عشرة على تسول المال من المارة بذريعة جمع التبرعات لحساب فريق رياضي ناشئ ؟

لماذا تجد في مدخل محطة القطار شبابا مقبولين شكلا و مضمونا، و هم يستعطفونك قائلين : "وليدات كازا و منحسرين، عاونا على البيي ديال التران" ؟

لماذا يصر هذا الكناوي الداكن السمرة الذي ألتقيه على الأقل مرة كل أسبوع في ديور الجامع، حيث أسكن، على إمتاع صغيرتي برقصاته المرحة و طقاطيقه الفريدة، و أجد نفسي في كل مرة، و أنا سعيد نشوان، أدس في يده بعض الدريهمات ؟

ما الذي يجبر هذه المرأة الأربعينية، و طفلتها التي لم تتجاوز الثلاث سنوات على الجلوس يوميا، و لساعات طويلة، عند شباك السحب الأوتوماتيكي لبنك التجاري بشارع الحسن الثاني، في مزاولة احترافية لمهنة التسول ؟

لماذا هناك أناس كثيرون في المغرب، لهم أجسام ضخمة كالجمال، و طاقة كبيرة على التحمل و العمل، و تجدهم رغم ذلك، يتسولون، و يعيشون عالة على المجتمع ؟

يعتبر التسول إحدى المشكلات الاجتماعية الشائعة في العالم بأسره، وتختلف نسبة المتسولين من بلد إلى آخر حسب عوامل اجتماعية وثقافية واقتصادية،

ولا يختلف عاقلان بأن التسول من العادات المستهجنة في أي مجتمع من المجتمعات، فأنت إذا أردت أن تنعت شخصاً بأقبح الصفات فإن كلمة متسول تأتي ضمن المعجم الموظف.

إذا كان علم الاجتماع يرَى أنّ التسول في المدن المغربيّة أضحَى ظاهرة بالفعل تفسرهَا تداعيات الأزمة الاقتصاديّة في بعض الأحيان، إلّا أنّ هناكَ تفسيراً اجتماعياً آخر مفاده أنّ روح التضامن التي لا تزالُ منتشرة على العموم بين المغاربة، عبر التعامل الخيري والإحساني،هي ما تجعلُ جيوشا من محترفِي التسول تنجح في استمالةِ الناس و استدرار عطفهم ،وسطَ تقاعس السلطات التِي لا تقومُ بما يكفي من الجهود لمحاربة الظاهرة.

و هناك كثير من حالات التسول التي لا تعني في الحقيقة أن المتسول في حاجة إلى المال أو هو عاجز عن العمل بل تندرج في الخداع والتضليل والكسب غير المشروع، علاوة على أن ضعف نفوس بعض المتسولين وغياب الكرامة لديهم هو ما يدفعهم إلى هذا العمل.

و هناك من يعتقد أن المتسولين هم أولا و قبل كل شيء ضحايا. ضحايا للجهل، و ثقافة التواكل، و الكسل، و الكسب السهل، إذ هم يعيشون كالطفيليات، و يمتصون دماء شغيلي المجتمع.

ما هي في رأيكم الدوافع الأخرى و الحقيقية لظاهرة التسول ؟

يمكن القول أيضا أنّ ظاهرة التسول تفاقمت مع الهجرة القرويّة إلى المدن، بسبب ما يواجههُ الوافدون الجدد من نقص حاد في فرص الشغل، إلى جانب أزمة السكن، مما يضطرهم إلى احتراف التسول الذِي سرعان ما يتحول إلى مهنة حقيقية مدرة للدخل، بالرغم من حطها لكرامة الإنسان و تحويله إلى شخص يتقمص بشكل مستمر دور الضحية و يتقن لبس القناع، قناع المسكين، المعوز و المحتاج دائما و أبدا لعطف الآخرين و جودهم.

إن التسول الاحترافي ظاهرة شديدة التركيب و التعقيد، يتداخل فيها السوسيولوجي، بالنفسي، بنظام القيم و المعتقدات. إن المجتمع المغربي جعل من المال قيمة مطلقة في حد ذاتها و أحد أسمى الأهداف في حياة الإنسان، و موازاة مع ذلك، جعل من الخمول و التواكل والرغبة الجامحة و اللامحدودة في الربح السريع معايير للحياة الاجتماعية و سلوكات مقبولة لدى الأفراد و الجماعات، وهذا ما يجر عدداً هائلا من الأشخاص إلى امتهان التسول.

و نافل القول أن الحديث عن التسول، و اعتباره ظاهرة اجتماعية أو مهنة مدرة للدخل، يمكن أن يطول أو يقصر، حسب المقام و السياق الاجتماعي و مواسم العام (رمضان، الأعياد...)، و بعيدا عن كل هذا، و لأن الحديث في حدود هذا المقال غيض من فيض، عن ظاهرة شديدة التركيب و عصية على الفهم السريع، فإنه من حقنا أن نتساءل في الختام : إلى متى يستغل هذه المهنة كثير من المحتالين لابتزاز الناس و الاغتناء على حساب الكرماء ؟ كيف لنا أن نتحمل مزيدا من الحديث عن الأطفال الرضع الذين يتم اشتراؤهم من دور الحضانة لاستغلالهم في التسول وجمع المال والثروة ؟ أ لم يحن الوقت حتى تطارد السلطات و المسؤولون جيوشا من المتسولين في الشوارع و الطرقات، همهم الوحيد الابتزاز و تشويه الفضاء العمراني و الإزعاج و الاستهلاك ؟ و أخيرا و ليس آخرا، ما هو دور أبواق الإعلام في نشر ثقافة العمل و الإنتاج و محاربة آفات المسكنة و التكاسل و التواكل ؟